



◆ رواد المدرسة التاريخية الأوروبية في القرن السادس عشر «فالّا - غيشيارديني - ماكيافيلي»

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

ملخص:

بعد أن تعرضنا في دراسة سابقة للمدرسة التاريخية الأوروبية في القرن السادس عشر وأهم رجالها وتوجهاتها، كان من الضروري التعمق في هذا الموضوع واستكمال هذه الدراسة بعرض تفصيلي لشخصية وإنتاج وأفكار أهم رواد هذه المدرسة، وهم: لورانزو فالّا وفرانيسكو غيشيارديني ونيكولو ماكيافيلي.

فلورانزو فالّا يمثل نموذجا للمؤرخ المحقق والناقد، أما فرانيسكو غيشيارديني فيعتبر رائد العرض التاريخي الحي والمشوق القائم على الغوص في دقائق الأحداث، بينما ترجع مكانة ماكيافيلي كمؤرخ إلى تحليله للتاريخ القديم واعتباره مخبرا للتجارب لفهم الواقع والتعامل معه، انطلاقا من ظروف عصره وحاجات مجتمعه.

وقد سمحت كتابات هؤلاء الرواد المتميزة بنظرة تاريخية إنسانية، واقعية، نقدية، أدبية وتحليلية بتناول متطلبات الواقع ومقتضيات المستقبل بمنهجية وتحليل مما يجعلها نموذجا للكتابة التاريخية في عصر النهضة.



Résumé:

Après la parution, dans le premier numéro de cette revue, d'une première étude sur les fondements de l'historiographie européenne du XVI^e siècle, il était nécessaire de compléter ce premier essai par une étude détaillée consacrée à la personnalité, aux écrits et aux idées des trois principaux pionniers de cette historiographie: Lorenzo Valla, Francesco Guicciardini et Nicolo Machiavelli.

Valla a incarné l'historien critique, tandis que Guicciardini a été le représentant d'une histoire descriptive fondée sur la relation fidèle des faits historiques, enfin, Machiavelli a montré, à travers une approche analytique et déductive de l'histoire ancienne, comment faire de l'histoire une source d'enseignements pour l'action présente.

Les écrits de ces éminents écrivains du XVI^e siècle ont donné naissance à une approche de l'Histoire, à la fois, humaniste, pragmatique, critique, littéraire et analytique. Ces écrits qui tissent des liens entre le passé, le présent et le futur, sont caractéristiques de l'historiographie de la Renaissance.

بعد أن تناولنا في دراسة سابقة ظروف وعوامل نشأة وتطور المدرسة التاريخية في القرن السادس عشر وتعرفنا على أهم المؤرخين الذين ساهموا فيها والتوجهات والأفكار التي ميزت انتاجهم وتحكمت في أعمالهم، يصبح من الضروري لاستكمال هذه الدراسة التعرض بشيء من التفصيل إلى الرواد الثلاثة الذين ارتقوا بهذه المدرسة إلى مستوى الإنتاج التاريخي الذي ظل يؤثر على الكتابات التاريخية في الغرب الأوربي، وهؤلاء الرواد الثلاثة هم: لورانزو فاللا وفرانسيسكو غيشيارديني ونيكولو ماكيافيلي.

أ. لورانزو فاللا (1405-1457م):

نشأ لورانزو فاللا بروما التي هاجرت إليها أسرته من موطنها الأصلي بليزانس (Plaisance)، وترعرع في وسط مثقف، فتأثر بأبيه الذي كان مختصاً في القانون المدني ومتولياً للمحاماة في إحدى الدوائر التابعة للكرسي الرسولي (الفاتيكان). وعندما ت يتم



في سن المراهقة كفه أحد أعمامه وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، فواصل دراسته وتعلم اللغتين اللاتينية والإغريقية على أحسن المعلمين بروما. فأبدى تعلقا بهاتين اللغتين وأصبح وهو في سن السابعة والثلاثين من المتضلعين بهما، كما أصبح أحد العارفين بالآداب القديمة بعدما تابع دراسته على العالم اللغوي جان أوريسبا (Jean Aurispa)، وأظهر دقة وتعمقا في دراسة النصوص اللاتينية، وهذا ما ساعده على الانخراط في السلك الكهنوتي وتولي منصب كاهن (1431م).

رغم كفاءة لورانزو فالالا العلمية والتزامه بمهامه الدينية إلا أنه لم يرتق إلى منزلة الكاتب الرسولي (Secrétaire apostolique) التي كان يأملها لمزاجه الحاد ولعدم رضا البابا مارتن الخامس (Martin V) عنه، وهذا ما دفعه إلى مغادرة روما والاعتزال بموطن أسرته بليزانس ليعيش على ميراث تحصل عليه من عائلته، فأغناه ذلك عن الارتباط بالوظيفة وأبعده عن مجتمع روما أثناء الاضطرابات التي صاحبت انتخاب البابا أوجين الرابع (Eugène IV).

بعد ذلك اشتغل لورانزو فالالا بالتدريس فتولى كرسي البلاغة اللاتينية بجامعة بافيا (Pavia) وانكب على كتابة هجائياته (Diatribes) بأسلوب شيق ونظرة نافذة، فتعرض بالنقد الشديد لسلوك ومواقف بعض المشرعين ورجال القانون وفي مقدمتهم القانوني باترال (Batrale)، فكثرت المناوؤون له واضطر إلى مغادرة بافيا ليتجنب خصومه وينجو من الإصابة بالطاعون الذي انتشر بها، فقصد ميلانو واشتغل فيها بالتدريس (1432م)، ومنها انتقل إلى جنوة ثم فلورنسا قبل أن ينال رعاية ملك الأراغون ألفونسو الخامس (Alfonso V) الذي كان على رأس جيشه في حملة عسكرية للاستيلاء على مملكة نابولي.

نال لورانزو فالالا رعاية الملك الأراغوني ألفونسو الخامس (1416-1458م) الذي نجح في الاستيلاء على مملكة نابولي، فاستقر ببلاطه (1435م) وصاحبه في أسفاره وحضر معه حروبه، وقد استهوته هذه الحياة الحافلة بالمغامرات ووجدت هوى في مزاجه الحاد وطبعه المتقلب، ولم يطل به الأمر حتى انتقل من نابولي إلى روما إثر انتصار الملك الأراغوني



(1443م) على خصومه وهذا ما سمح لفا لا أن يندمج في مجتمع روما من جديد رغم نفوره من المظاهر الدنيوية التي كانت تطبع الحياة في الفاتيكان.

تناول لورانزو فالو النصوص القديمة بالدراسة ولمس ما شابها من تحريف وما علق بها من إضافة عندما تصدى لنقد العقود الأولى من تاريخ تيتليف (Titelive) وأثناء تعليقه على النص اللاتيني للكتاب المقدس المعروف بترجمة الفولغات (Vulgate)، وثبت لديه أن جل النصوص المسيحية المنسوبة إلى الحواريين ترجع في أساسها إلى مقررات مجمع نيقة (Nicée) (325م)، وحتى ما يعرف بوثيقة «هبة قسطنطين» (La Donation de Constantin)، التي ظل الاعتقاد بصحتها سائدا لمدة خمسة قرون، ما هي في الحقيقة إلا وثيقة موضوعة وحجة مفتعلة لا تستند إلى أي أساس تاريخي وضعت لإضفاء الشرعية على السلطة الدنيوية والدينية البابوية، وقد اكتسبت هذه الوثيقة صفة الحق المكتسب والأمر المسلم به من طرف الجميع منذ عهد شرلمان (Charlemagne) (ق. 9 م) وتحولت إلى حجة طالما استند إليها الباباوات في صراعهم مع أباطرة الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة (ق. 12-13م) لإثبات سلطتهم الدنيوية(1).

وتتلخص الرواية التاريخية المتعلقة بهذه «الهبة» في أن الإمبراطور قسطنطين الكبير (305-337م) قد ابتلي بمرض الجذام الذي لم يشف منه حسب الاعتقاد السائد إلا بصلوات البابا سلفستر الأول (Silvestre I)، فكافأه الإمبراطور بإصدار قانون يسمح بموجبه «للبابا» بلبس التاج واستعمال الصولجان كالأباطرة الرومان تماما، كما منح الإمبراطور قسطنطين أيضا الأساقفة وكبار رجال الدين بروما نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها شيوخ الإمبراطورية القديمة، وحتى لا تتأثر سلطة البابا بوجود شخص الإمبراطور بروما، فقد ترك قسطنطين روما طوعية للباباوات واختار لنفسه عاصمة جديدة في الشرق وهي القسطنطينية، وبذلك آل حكم روما والمناطق المجاورة لها للباباوات، وهذا ما دعم موقف البابوية في صراعها المرير مع الإمبراطورية الجرمانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد(2).



اعتمد لورانزو فالّا في نقض وثيقة هبة قسطنطين هذه على استعمال المنطق وتحكيم العقل والإلتجاء إلى المقاربة والتحليل اللغوي، فقد اتبع في نقده لهذه الوثيقة قواعد عامة، وأثبت أن الإمبراطور قسطنطين لم يمنح الهبة بالمرّة وأن البابا سلفستر بالضرورة لم يتقبل مثل هذه الهبة، وقد بين بالدليل القاطع أنها غير صحيحة لأنها لو وضعت فعلاً لأمكن الاستدلال عليها بعدة دلائل، منها مثلاً وجود عملة تحمل اسم البابا أو إشارة تتعلق بها لدى المؤرخين المعاصرين أمثال يوتروبيوس (Eutropius) الذي عاش في القرن الرابع والذي لم يأت في كتاباته ذكر شيء يتعلق بهذا الأمر المهم، فضلاً على أن النص الأصلي للهبة لم يعثر له على أثر، وحتى النص المزعوم لها كتب بلغة لاتينية سقيمة واحتوى ألفاظاً وتراكيب لم تدخل اللغة اللاتينية إلا بعد عهد قسطنطين بعدة قرون مما يدل على أن الوثيقة من اختلاق كتاب الديوان البابوي، فضلاً على أن العارفين بالوثائق لم يكونوا يثقون في صحتها رغم تسليمهم بها مثل الكاردينال نيقولا دو كيوز (Nicolas de Cues) (1401-1464م) (3).

تعرض لورانزو فالّا بسبب دراساته النقدية اللاذعة للنصوص الكنسية القديمة لنقمة البابا أوجين الرابع ولكراهية مساعديه من الكرادلة، فأصبح محل متابعة وموضع اتهام، مما اضطره إلى الانتقال متتكرًا إلى مدينة أوستي (Ostie) حتى لا يلقي القبض عليه ويقدم للمحاكمة، ومنها تسلل إلى نابولي حيث حظي برعاية الملك ألفونسو الخامس وحمايته، فعينه كاتباً لديه وكلفه بترجمة مؤلفات إغريقية ومنحه شهادة تقرر بمعرفته للعلوم الدينية والمعارف الانسانية، وأصبح محل تقدير المهتمين بالدراسات الإغريقية، وهذا ما مكّنه من فتح مدرسة للبلاغة الإغريقية واللاتينية وفرض مكانته العلمية في أوساط الإنسانيين. على أن هذا النجاح جر عليه عدااء المنافسين له، فوجدوا في تقلب مزاجه وغلطسته وحرّيته في الكلام والتفكير ما مكنهم من مضايقته والتهجم عليه واتهامه بمعاداة الدين ومجانبة المعتقد، وكان في طليعة منافسيه الذين استبدت بهم الغيرة علماء البلاط الأراغوني بنابولي أمثال بارت (Bart) وفازيو (Fazio) ولوبيانور ميتان

(Le Panor Mitain)، فلم يجد لورانزو فالّا بدا من التحول مجدداً إلى روما علّه يجد فيها جواً يساعده على نشر آرائه في قضايا اللغة والتاريخ ويتكفل بطبع دراسته النقدية التي قوض فيها الأسس التاريخية لهبة قسطنطين، فكان نشره لها بروما تأكيداً لروح التسامح وجو الحرية الذي كان سائداً آنذاك في دوائر الكنيسة وبلطات الحكام ومجالس الباباوات(4).

في مثل هذا الجو وجد لورانزو فالّا في روما التشجيع لدى البابا نيقولا الخامس (Nicolas V) المولع بالآداب والعلوم والمقدر لجهود العلماء، فاكسب عطفه وحظي برعايته وأصبح موظفاً في الحكومة البابوية، فكان موقف البابا هذا من لورانزو فالّا تحولا في نظرة البابوية للثقافة الإنسانية وتفهما من رجال الكنيسة لتوجهات الفكر في عصر النهضة، ولعل هذا ما شجع لورانزو فالّا أن يتقدم إلى البابا ببعض أشعار هوميروس مترجمة لأول مرة إلى اللاتينية (1447م)، لكن مزاج لورانزو فالّا الحاد واعتداده بنفسه جعله يدخل في جدال عنيف مع العالم اللغوي جورج الطرابازوندي (Georges Trébizonde) عندما خالفه فالّا فيما ذهب إليه واعتبر أن شيشيرون (Cicéron) أبلغ تعبيراً من كانتيليان (Quintilien)، وبسبب نقده الحاد أيضاً دخل في خصومة مع عالم القانون موراندو (B. Morando)، وهو أحد المشرعين من مدينة بولونيا، وأصبح في موقف مشاحنة شديدة مع أستاذه العالم بوجيو الذي أخذ على لورانزو فالّا نقده لأسلوبه وطريقة كتابته. لم يحل إنكار فالّا لتلك التعليقات المسجلة على رسائل بوجيو دون تطور الخلاف بينه وبين بوجيو إلى مواقف عدائية صريحة، عبر عنها بوجيو في كتابه «المثالب» (Les invectives)، ورد عليها فالّا في كتابيه «المضادات» (Les antidotes) و«المحاورات» (Les dialogues)، وقد قدم فالّا كتابه الأخير إلى البابا نيقولا الخامس الذي لم يحاول الحد من المشاحنة بين الرجلين، في الوقت الذي عجز فيه العالم فيلافو (Filelfo) وهو من الشخصيات ذات المعرفة والنفوذ عن التوصل إلى عقد صلح بين الخصمين(5).



لقد كانت تلك المشادات والانتقادات والمواقف النقدية خير مساعد للورانزو فالأعلى أن يعمق دراسته وأن يدقق في بحوثه التي ألهته لتولي مناصب عدة وأن يحظى بالتشجيع عن أعماله، فقد نال من البابا عن ترجمته لكتاب ثيوسديد (Thucydide) منحة مجزية لا تقل عن 500 قطعة ذهبية (Ecus)، وحصل على منصب كاتب بالدائرة الرسولية (Secrétaire apostolique)، كما اشتغل كاتباً للبابا نيقولا الخامس، وأسند له وظيفة كاهن قانوني في كنيسة القديس يوحنا اللتراني (Eglise de St Jean du Latran). على أن لورانزو فالأعلى لم تغره كل هذه المناصب عندما فضل التحول إلى نابولي حيث توفر له الوقت الكافي للمواظبة على الكتابة والاشتغال بالرد على ناقديه ومخالفيه، فأنجز العديد من الأعمال التاريخية قبل أن توافيه المنية سنة 1457م، عن سن يناهز الواحد والخمسين سنة(6).

لقد اشتهر لورانزو فالأعلى بكتابات النقدية وتحقيقاته التاريخية حيث ذاع صيته خاصة بنقد ودحض ما كان يعرف بهبة قسطنطين كما سبقت الإشارة إلى ذلك فكان انجازه لدراسته النقدية هذه سنة 1440 بداية حقيقية لمنهج البحث التاريخي، كما عرف بين معاصريه بمعارفه الواسعة المتعمقة وثقافته المتنوعة وبحماسه واندفاعه وحدة مزاجه وحيويته وميله للنقد وعمله الدؤوب الذي سمح له بإنتاج العديد من الدراسات والتعليقات التي كان لها تأثير على تطور حركة النقد التاريخي. وقد أقبل القراء على كتبه الكثيرة التي ترجمت إلى العديد من اللغات الأوروبية والتي تعددت طبعاتها مع انتشار الطباعة بإيطاليا حتى أصبح من المتعذر حصر عناوينها أو معرفة عدد طبعاتها بدقة، ومن أهم الكتب والتعليقات، حسب تاريخ نشرها لأول مرة نذكر(7):

- في الأسلوب اللاتيني البليغ (De elegantia latinx lingux Lib VI) (روما، 1471م). مع ملحق في قواعد النصوص اللاتينية. تعددت طبعاته بروما والبندقية وباريس (1471م)، ثم بروما وميلانو (1475م)، ثم البندقية (1536م).

- رسالة أنطونيوم رودنس (In Antonium raudensem anotationum libellus) البندقية،

1481م.



- كتاب التحكيم (De libero arbitrio) طبع في سنة 1482م بدون تحديد مكان النشر.
- ليما (Lima)، البندقية، 1482 و1497م.
- مختارات أخلاقية (Faceliae morales, seu Aesopus translatus) نشر دون ذكر مكان الطباعة حوالي 1488م، تضمن خمسة وثلاثين حكاية ترجمت إلى الفرنسية ونشرت بباريس عام 1490م.
- أنتيوف في بوجيوم (Antiofi in Poggium Lib IV) طبع ببيينا عام 1490م.
- خطب حول قضايا العقيدة المسيحية (Sermo de Mysterio Eucharistix) نشر ضمن أعمال لاكتانس وسترابون، 1490م.
- في الجدل (De Dialectica Lib III) البندقية 1499م.
- تعليق حول سلاستيوخس (Commentarius in Sallustium) نشر مع كتاب سالوست بالبندقية عام 1500م.
- تقييد (Annotationes) نشر بباريس عام 1505م.
- هومييري هيا (Homeri Hias) البندقية 1502م.
- تعاليق (De Amore, cum commento) نشر براون، 1506م.
- حول المناهج (De Voluptate et Vero Bono Lib III) التي أثارت جدلا حادا عند نشرها (1431) طبعت بباريس، 1512م.
- حول هبة قسطنطين (De Donatione Constantini) أنجزت سنة 1440م ونشرت دون تحديد مكان الطباعة عام 1520م.
- تاريخ فرديناندو ملك الأراغون (Historarium Ferdinandi Regis Aragonix).
- تقولات لاهوتية (Calumnia Theologica) نابولي، 1522م.
- هيرودوت (Herodotus) ترجمة هيرودوت، طبع ببولونيا عام 1526م.



- تعقيبات حول الحرب البونية (Emendationes in Livium de bello punico) نشر ضمن تاريخ تليف بباريس عام 1573م.
- ثيوسيديد (Thucydides) وهو ترجمة لتاريخ ثيوسيديد، طبع ببال عام 1540م.
- هذا وقد جمعت كل أعمال لورانزو فاللا، باستثناء تاريخ فرديناندو وبعض الترجمات والتعليقات، ونشرت بمدينة بال سنة 11543، فأمكن للدارسين الرجوع إلى إنتاجه الأدبي وإسهامه التاريخي وعمله اللغوي الذي يؤكد مكانة فاللا كدارس لغوي للنصوص وكمؤرخ ناقد، رغم ضياع الكثير من كتاباته المتعلقة بجانب الإبداع النقدي التاريخي، وهي في أغلبها رسائل في التقريض والهجاء (Epigrammes, Epitres) وتعليقات حول أسلوب كانتيليان (Commentaires de Quintilien).

ب. فرانسييسكو غيشيارديني (1482-1540م):

ولد فرانسييسكو غيشيارديني (Francisco Ghicciardini) بفلورنسا في 6 مارس 1482م، وكان الابن الثالث لأبيه الذي ينتمي إلى أسرة أرسقراطية تولى العديد من أفرادها الوظائف السياسية، فنقله جد غيشيارديني مناصب سياسية في حكومة فلورنسا وكان عم والده حامل شعار جمهورية فلورنسا عدة مرات، بينما عين والده بطرس (Pierre)، الذي كان على دراية باللغتين اللاتينية والإغريقية، سفيرا لدى الإمبراطور ماكسيمليان الأول بجرمانية وعند البابا ليون العاشر بروما. وقد ساعدت هذه المكانة الاجتماعية غيشيارديني على اكتساب ثقافة رفيعة، فأثقت استعمال اللغة الإيطالية الصحيحة، ودرس القانون بفلورنسا ثم فرارا (Ferara) وبادوفا (Padova)، وقد أهله مواهبه وكفافته أن يتولى تدريس القانون وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ثم تحول من مهنة التدريس إلى تعاطي المحاماة، وأثناء ذلك اشتهر ببراعة بيانه وحسن خطابه، لكنه لم يلبث أن مال إلى التعمق في دراسة الآداب القديمة وتاريخها.



انتظمت حياة غيشيارديني بعد زواجه، وهو في سن السادسة عشرة، من ماريا دالامانو سالفياتي (Maria d'Alamano Saviati)، فأقيم حفل زفافه بكنيسة أجداده سانت فليستي (Sainte Félicité) (1506م)، فكان زواجا موفقا جعله أبا لسبع بنات وكفل له تأييد ومساندة الأسرة التي صاهاها «أل سالفياتي» التي قال عنها غيشيارديني: «أنها أسرة فاضلة ذات تراث عظيم تتفوق على غيرها من الأسر النبيلة في النفوذ والسلطان الذي أقر بأنني مولع به أشد الولع(8)»، وقد ساعدت الحياة الزوجية غيشيارديني على بلورة شخصيته، فعرف بطريقة حياته البسيطة وميله إلى التقشف ورغبته في التكم وقدرته على السيطرة على سلوكه وتصرفاته، فكانت له هذه الخصال خير عون له على النجاح في الوظائف الدبلوماسية التي سوف يشغلها وخير عون له للتغلب على ما لاقاه من مصاعب في حياته المضطربة ووسطه المشحون بالمؤامرات والمكائد.

ارتبط غيشيارديني بشؤون بلده فلورنسا، فتولى سفارة من قبل حاكمها لدى الملك فرديناندو الخامس (الكاثوليكي) ملك قشتالة والأراغون، فتعرض بسبب ذلك إلى غضب البابا الناقم على تحالف فلورنسا مع الملك الفرنسي لويس الثاني عشر، وهذا ما جعل وضع غيشيارديني حرجا ومهمته في غاية الخطورة، وقد تطلب منه حتى يحافظ على مصالح بلده ويكتسب ثقة الملك القشتالي أن يظهر مهارته الدبلوماسية وحكته السياسية أثناء هذه المهمة التي دامت سنتين.

نال غيشيارديني بحسن تصرفه رضا البابا ليون العاشر (Léon X) الذي أوكل له حكم كورتون (Cortone) (1575م) وعينه محامي لدى المجلس (Avocat consistorial)، ثم استدعاه إلى روما وأسند له الإشراف على حكومة إمارة مودين (Modène) وإقليم ريغبيو إميليا (Reggio Emilia) (1518م). وهذا ما دعم مكانته في دولة الكنيسة وسمح له بتولي مسؤولية المفتش العام للجند في لومبارديا مع صلاحيات غير محدودة وأعطته الأفضلية على القائد العام للفرق العسكرية ماركيز مونتو (Montoue).



وأثناء ذلك احتفظ غيشيارديني بجانب منصبه كمفتش عام للجند بوظيفة الإشراف على حكومتي مودين وريغيو إميليا على عهد البابا أدريان الرابع، وهذا ما زاد من نفوذه في الدوائر البابوية، فتولى على عهد البابا كليمنت السابع (Clément VII) حكم مقاطعة رومانيا (Romagne) المتمردة، فوضع حدا لعصابات قطاع الطرق، وأنهى المشاحنات بين أنصار ومعارضى البابا الغولفيين (gibelins) والجبليين (guelfos) بتطبيق الأحكام العادلة بحزم وتقديم رؤساء العصابات إلى محاكم أوكلت إلى قضاة أعطيت لهم صلاحيات الحكام حتى يتمكنوا من تنفيذ الأحكام التي يصدرونها.

لقد قدر البابا كليمنت السابع كفاءة غيشيارديني في القيام بالمأموريات التي أوكلت له، فأسند إليه مهمة القائد العام للفرق العسكرية التابعة للبابوية، فبرهن غيشيارديني مجددا على كفاءته ونجح في الدفاع عن مدينة بارما (Parma) في مواجهة الفرنسيين، كما تمكن من إعادة الهدوء إلى مقاطعة بولونيا (Bologne)، بعد أن قضى على نفوذ مجلسها المحلي وأبعد عن الحكم أسرة آل بيبولي (Pepoli) التي كانت صاحبة النفوذ بها.

بعد أداء هذه الخدمات والقيام بهذه المهام شعر غيشيارديني بضرورة الخلود إلى الراحة والتفرغ لحياته الخاصة، فاعتذر للبابا بولوس الثالث (Paulus III) عن مواصلة خدمته للبابوية. وقد فضل غيشيارديني الانعزال عن الناس في مقر إقامته بفيلا آرترى (Villa d'Artri)، فكرس وقته للبحث وتذوق الأدب، فبدأ بتسجيل مذكراته (Mémoires)، التي وجد فيها خير عزاء له على ما عاناه من مشاق وما بذله من جهود وما قام به من أعمال، وقد توسع فيها بتشجيع من صديقه ناردى (Nardi)، فتجاوز فيها السيرة الذاتية إلى عرض تاريخي دقيق ومفصل لأحداث عصره (9).

ولم يكن غيشيارديني يغادر مكان إقامته الريفي إلا عندما يطلب للمشاركة في مجالس الحكومة أو عندما تستدعيه أسرة مديتشي (Médicis) من أجل إرشاد وتهذيب الأمير الجموح الإسكندر (دوق فلورنسا) الذي دام حكمه خمس سنوات كان فيها غيشيارديني نعم المساند له والمؤيد لحكمه الاستبدادي. وأثناء ذلك تعرف على الإمبراطور



شارلكان وحصل منه على رعاية خاصة للأمير الإسكندر، وقد قدر الإمبراطور شارلكان في غيشيارديني خبرته ومواهبه، فأثر محادثته والجلوس إليه في مدينة بولونيا في وقت كان فيه قادة جيشه وأعيان دولته ينتظرونه وقتاً طويلاً في بهو الاستقبال، فلم يجد الإمبراطور ما يقنعهم به سوى قوله: «إن في وسعي أن أخلق عشرين نبيلاً في ساعة، ولكني لا أستطيع إيجاد مؤرخ واحد في عشرين سنة» (10).

عاد غيشيارديني من جديد إلى خضم السياسة لينغمس في قضايا الحكم بعد أن اغتيل الأمير الإسكندر (1536م) من طرف ابن عمه لورانزو بطل ماكيافيلي في كتاب الأمير، فقد تدخل غيشيارديني في قضية اختيار نظام الحكم في فلورنسا، عندما جمع الكاردينال ليو (Libo) الأعيان للتداول في شأن هذه القضية، وأقنع المجتمعين في هذا الشأن بالعدول عن نظام الجمهورية، بعد أن كانت الأغلبية تؤيد الأخذ به، وأوضح لهم بأن هذا الاختيار يحمل أخطاراً ومضاراً لفلورنسا، وبذلك تم انتخاب كوم دو مديتشي (Côme de Médicis) عاهلاً على فلورنسا ومقاطعتها. على أن هذا الاختيار لم يعد لغيشيارديني المكانة التي كان يحظى بها، فلم يجد بداً، بعد أن استغنى كوزيمو الأصغر أمير فلورنسا عن خدماته، من أن ينزوي مجدداً في منزله الريفي ليواصل العمل في مذكراته، فأنجز منها عشرة كتب قبل أن توافيه المنية في سن الثامنة والخمسين، وقد أثار موته المفاجئ (22 ماي 1590) الشكوك حول إمكانية اغتياله لماضيه السياسي، لا سيما وأن الموت بالسم كان أمراً شائعاً في عصره ومألوفاً في بيئته (11).

لقد تبوأ غيشيارديني مكان الصدارة بين مؤرخي القرن السادس عشر بفضل كتابته لمذكراته وتسجيله لأحداث عصره، التي تحولت إلى كتاب تاريخي متكامل عرف بتاريخ إيطاليا (Historia d'Italia) الذي لم يتم منه سوى الأجزاء الخمسة الأولى التي تغطي الأحداث من عام 1494 إلى 1532م، والتي تمت مراجعتها وتنقيحها من طرف ناردي أحد أصدقاء غيشيارديني، بينما ظلت الأجزاء الأخرى في شكل مسودة أولية، بعد أن باغت الموت صاحبها ولم يمهله حتى الانتهاء منها ومراجعتها، وهذا ما جعل ابن أخيه أنيولو



(Agnolo) يحجم عن تقديمها للطباعة حتى لا يضر بسمعة عمه، ولم تنشر حتى تمت مراجعة مادة الكتاب في مجملها، فظهرت الأجزاء الستة عشرة (بفلورنسا لدى الناشر تورانتينو سبتمبر 1561م) بعنوان تاريخ سنوات 1494-1526 (Della Historia dell'anno 1494), ثم أتبع بالأجزاء الأربعة الأخيرة (1564م) التي تولى طبعاها الناشر البندقي جيوليتو دي فرارا عام 1564م. وقد أعيد طبع الأجزاء المتبقية في بارما في نفس السنة مع تعليق عليها، بعدها عمل أحد الرهبان الدومينكان وهو المحقق ريمي نارمي (Remy Narmi) على نشر الكتاب كاملا، فظهرت النسخة الكاملة من تاريخ غيشيارديني في عشرين جزءا في طبعتين سنتي 1567م و1569م، ثم ظهرت طبعة أخرى من الكتاب بمبادرة الناشر انجيليري (G. Angelieri) في البندقية سنة 1574م، بعدها تعدد طبعات تاريخ غيشيارديني، فكانت أهمها الطبعة الكاملة التي أصدرها وعلق عليها بوركاتشي (Pocacchi) سنة 1583م. هذا وقد ترجم كتاب تاريخ غيشيارديني باكرا إلى اللغات الأوربية، فظهرت الترجمة الفرنسية على يد شوموداي (Jérôme Chomedey) (1568م)(12)، في الوقت الذي ظلت فيه اللغة العربية مفتقرة إلى ترجمة هذا الكتاب المهم الذي لا يمكن دراسة المنهج التاريخي والتعرف على دقائق التاريخ الحديث الأوربي دون الرجوع إليه. يمكن إجمال بعض الملاحظات عن كتابات غيشيارديني التاريخية في النقاط التالية:

1 - جاء «تاريخ إيطاليا» تعبيرا صادقا وصورة معبرة عن روح وطبيعة المجتمع في عصر النهضة بإيطاليا، الذي عاش فيه غيشيارديني وتأثر به، والذي كان يتميز بروح الشك ونظرة التشاؤم وتغلب المصالح الفردية وتراجع الوازع الديني وتعلق الفرد بالمنفعة الخاصة، فقدم بذلك غيشيارديني نموذجا لكتاب عصر النهضة الذين لم يتخنوا مثلا أعلى يعيشون من أجله ولم تكن لهم أحلام تقض مضاجعهم وليس لهم طموحات مثالية يلتزمون بها في واقعهم المتميز بالتقلبات السياسية والمواقف الفردية، هذه التقلبات وتلك المواقف التي أقنعت غيشيارديني بأن الحرية التي كان ينادي بها الأمراء إنما هي في



الحقيقة خدعة يسعى من ورائها هؤلاء الأمراء للحصول على السلطة ونيل السلطان، وضمن هذا الفهم للسلوك والمعاملات تصبح الفائدة والمصلحة هدف الفرد والمجتمع وأساس كل عمل، وهذا ما عبر عنه بقوله: «بأن الاخلاص مجلبة للسرور ويكسب صاحبه الثناء، أما الخداع فمجلبة للوم والكراهية، وما دام أولهما أكثر نفعاً للناس منه لصاحبه، فلهذا لا يلجأ إلى الخداع إلا في بعض الأشياء ذات الخطر العظيم، وفي هذه الحالة يكون الخداع أكثر نجاحاً كلما كثرت محاولات الإنسان في أن يشتهر بين الناس بالإخلاص» (13).

2 - عالج غيشيارديني أحداث التاريخ انطلاقاً من العلاقات الدولية والمسائل العسكرية والسياسية السائدة في عصره، حيث لاحظ وحدة التاريخ الأوروبي وتكامل الأحداث العالمية لعصره انطلاقاً من الحروب الإيطالية (1494-1559م)، فأدرج تاريخ مدينة فلورنسا ضمن هذا المنظور عندما تعرض للأحداث التي عاشتها هذه المدينة منذ الربع الأخير من القرن الرابع عشر وحتى مستهل القرن السادس عشر (1378-1509م). فعبّر عن خلال تاريخ مدينة فلورنسا عن روح العصر التي طغت عليها النزعة الإنسانية الواقعية ومتطلبات الحكم والسلطة، فأظهر في كتاباته طبيعة حكم أسرة بورجيا وظروف إيطاليا التي كانت تعاني اجتياح الجيوش الغازية.

3 - كتب غيشيارديني تاريخه عن دراية ومعرفة، فقد كان في موضع الشاهد والمشارك في الأحداث، كما هو الشأن في الأجزاء الأخيرة، التي كان فيها أقدر على التحليل وأنفذ إلى حقائق الأشياء وخلفيات الأحداث من أي مؤرخ آخر كتب عن تلك الفترة. كما ألزم نفسه بالرجوع إلى وثائق دقيقة وصحيحة المضمون، حرص على جمعها بعناية، فجاءت كتابته التاريخية تتصف بالنضج وتتميز بالدقة والموضوعية والواقعية، ولعل حرصه على الصدق في عرضه للأحداث هو الذي جعله يصيغ خطبا بليغة على لسان أبطاله ويجتهد في أن يكون مضمونها صحيحا ولا يتردد في الإشارة إلى أنها موضوعية، وكان الغرض من ذلك هو تقليده للقدماء وحرصه على اطلاع القارئ على مواضع الجدل والنقاش والكشف عن خلفيات سياسات الحكام والملوك.



4 - اتصف غيشيارديني بالدقة والتحري في الوصف إلى حد الاستطراد في بعض التفاصيل ولو كانت غير متجانسة وبالوقوف مطولا عند كل حادثة ولو كانت قليلة الأهمية، من قبيل القبض على حمامة بإحدى شرفات القصر مثلا، وهذا ما جعل عرضه لاحتلال مدينة بيزا على سبيل المثال يكاد يكون بدون نهاية، على أن مثل هذا العرض المسهب والمفصل والمتبع لدقائق الأشياء لا يخلو من فائدة كما يدل على ذلك وصفه لغاستون دوفوا (Gaston de Foix) في معسكر رافينا ومرافعة دوق ألب (Duc d'Albe) لدى الإمبراطور شارلكان حتى يخلي سبيل الملك الفرنسي الأسير فرانسوا الأول.

5 - تعرض بعض المحللين لمضمون «تاريخ غيشيارديني»، فأخذوا صاحبه على أنه كان معاد في عرضه للأحداث لمملكة فرنسا، وذهب بعضهم إلى حد القول بأنه كان غير حيادي في بعض مواقفه من الدوق فرانسوا ماري أدريان الذي كان له حفيظة عليه عندما هاجمه في إحدى مجالس الحرب. على أن هذه الملاحظات على عمل غيشيارديني لم تكن في الواقع تستند إلى برهان مقنع وحجة قوية لأن غيشيارديني لم يفته أن يشيد بخصال الجيش الفرنسي، بل أبدى إعجابه بالملوك الفرنسيين الذين شاركوا في الحروب الإيطالية (شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرانسوا الأول)، كما أشاد بمواهب كل من غاستون دوفوا وجان الميديتشي (Jean de Médicis)، مما يبعد عنه تهمة الانحياز، ولعل هذا ما جعل أشد خصوم غيشيارديني يقرون له فيما كتبه بالنزاهة وبالحياة وبالصدق فيما عرضه من أحداث، بل ذهبوا إلى اعتبار أن كتابه تاريخ إيطاليا يجمع بين حياة القاضي النزيه ودقة المشاهد اليقظ ونظرة العارف بأدق القضايا وأكثرها سرية وخفاء.

6 - جمع غيشيارديني بين خصائص الكتاب المحدثين لعصره في اعتماده العرض القصصي الحماسي والمشوق للأحداث التي شارك فيها، وبين صفات القدماء في سرد الوقائع والالتزام بجمال اللفظ، وإن كان في ذلك لا يرتقي إلى مستوى العرض المنظم والمتوازن للأحداث الذي ارتقى إليه مؤرخو الإغريق والرومان، وقد كان من حيث تشكيل الأحداث والتعليق عليها أقرب إلى المؤرخ الروماني تيتليف منه إلى ثيوسيديد وكزينوفون.



وتأسيت وسالوست. على أن جزالة أسلوبه وامتلاكه لغة إيطالية معبرة وسهلة جعله يقدم نموذجا بليغا للمؤرخين اللاحقين الذين أقبلوا على قراءة تاريخه وتقليده.

7 - التزم غيشيارديني بالنظرة الواقعية، فتجنب الغوص في تفسير الكون ومحاولة فهم أسرارها والبحث في علله وغاياته، بل أملت عليه هذه النظرة الواقعية تقبل السلوكات والمفاهيم السائدة في مجتمعه، وهذا ما جعله يرى ضرورة تأمل الدين في حياة المجتمع، لأنه في نظره وإن كان يقوم في المعتقدات القديمة ولدى بعض الناس على افتراض صحة الأساطير والتسليم بالغيبيات، إلا أنه يساعد على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي والسلوك الأخلاقي للإنسان، وما دام الإنسان في رأيه «فاسد الأخلاق بطبعه ومتمرد على القانون بسجيته» (14) فإنه لا محالة أن أحوال المجتمع سوف تتردى وحالة الشعب سوف تسوء عندما يفسد المعتقد وتزول القوة الأخلاقية التي تستند إليها القوانين.

8 - عبر غيشيارديني عن فهمه للحياة وتقييمه للأشياء وحكمه على السلوك البشري بموضوعية وحياد، فاعتبر أن المصالح الآنية ومتطلبات الواقع هي الأساس في كل سلوك والدافع إلى أي تصرف، وأن المال يعوض السلاح وقد يكون مفعوله أكثر فائدة، وأن من الحكمة أن يكيف المرء نفسه مع واقعه، وأن يجعل سلوكه رهن متطلبات يومه وليس وفق مبادئه، ما دام الإنسان، حسب قوله: «قد طبع على الرغبة في السيطرة على زملائه وإثبات تفوقه عليهم... وأن من ينظر بتمعن إلى سلوك الناس الذين يقيمون في مدينة واحدة ويلاحظ خلافاتهم ويتقصى أسبابها، يجد أن هدفهم التسلط عليهم لا طلب الحرية لهم، ولهذا ترى أن أكابر الناس مقاما ومنزلة لا يسعون إلى الحرية، وإن كانوا لا ينفكون يلوكون لفظها بلسانهم، بل كل ما يضمرونه في سرائرهم هو ازدياد سلطانهم وتفوقهم على غيرهم. أما الحرية فهي عندهم خداع بل تصنع يخفي وراءه شهوة التفوق في السلطان والشرف» (15).

9 - نادى غيشيارديني بفصل السياسة عن العقيدة والسلطة عن الكنيسة، بعد أن اقتنع أن خلاص إيطاليا من الفوضى السياسية والاضطراب الأخلاقي والقلق الاجتماعي



الذي كانت تعيشه في القرن السادس عشر لا يكون إلا برجع الكنيسة إلى مهمتها الرئيسية وهي القيام بالرسالة الروحية والامتناع عن الاشتغال بأمور الدنيا. وهذا ما دفعه إلى نقد الأسس التي بنيت عليها سلطة الكنيسة، ورغم أنه لم يتخذ موقفا عدائيا من السياسة البابوية، بعد أن اضطرت الظروف أن يتعامل معها، إلا أن ذلك لم يحل دون توضيح موقفه من سلطة الكنيسة ونظرتة إلى القيم الدينية التي تمثلها بقوله: «ليس ثمة من ييغض الطمع والشر ومظاهر الإفراط لدى القساوسة كما أبغض أنا ذلك، ليس لأن كل الشرور بغيضة في ذاتها فحسب بل لأن هذه الشرور يجب ألا يكون لها مكان عند رجال الدين الذي يفترض أنهم ذوو علاقة خاصة بالله... ولقد كانت لي علاقات ببعض الباباوات جعلتني أرغب في مظاهر عظمتهم ولو بالتضحية في سبيل ذلك بمصالحي نفسها. ولولا هذا الاعتبار لأحببت مارتن لوثر كما أحب نفسي» (16). إن موقف غيشيارديني من رجال الدين صادر عن قناعته بضرورة تحديد مهمتهم في القيام بأمور العقيدة بعيدا عن مشاغل الحياة وأمور الدنيا، وهذا ما جعله يوجه إليهم النقد ويطالبهم بالالتزام بواجباتهم الروحية، بمثل هذه العبارة: «إن هذا الحشد من الفساق (Scélérats) الذين تخلوا عن وظيفتهم... عليهم إما أن يحيوا حياة مبرأة من الإجرام أو حياة مجردة من السلطان...» (17).

كل هذه الملاحظات المتعلقة بشخصية غيشيارديني وإنتاجه التاريخي تؤكد مكانته في الإسهام التاريخي الأوروبي للقرن السادس عشر وتجعل منه رائدا للكتابة التاريخية في عصر النهضة، وهذا ما جعله موضوع إشادة كما جعله محل نقد من طرف معاصريه، وإن أجمعوا كلهم على تقدير ملكاته في الكتابة التاريخية. فالمؤرخ بودان يرى في كتابه «منهج لقراءة التاريخ» (Méthode pour lire l'Histoire) أن تاريخ غيشيارديني إنجاز يتجاوز أي عمل من أعمال المؤرخين القدماء وإسهام يتفوق به على الثلاثين مؤرخا الذين كتبوا عن أحداث إيطاليا في عصره. كما اعتبر الكاتب جوست (Juste) غيشيارديني بأنه أكثر المؤرخين المحدثين عمقا في التحليل والنظرة إلى الأحداث، وإن لم يبلغ حسبه مكانة



المفكرين القدماء. أما العالم الإنساني الفرنسي مونتين (Montaigne)، فقد اعتبر غيشيارديني في كتابه «محاولات» (Essais) بأنه: «من المؤرخين القلائل الذين يمكن التعرف على حقيقة أحداث زمانهم بالرجوع إلى كتاباتهم، فهو مع كونه طرفا في الأحداث إلا أنه لم يظهر أي حقد أو مدح أو تعال... بل أنه لم يعمد حتى إلى تفسير الأحداث تفسيراً أخلاقياً أو دينياً أو ذاتياً وإنما يتناولها فقط من حيث كونها وقائع مستقلة في حد ذاتها» (18). ويوافقه في هذا الحكم الكاتب أنيولو (Agnolo) وهو ابن أخ غيشيارديني ومحقق وناشر كتبه، الذي اعتبر عمه غيشيارديني من المؤرخين القلائل الذين استطاعوا الارتقاء إلى حقيقة الأشياء فيما سجلوه من أحداث. وبمثل هذه الأحكام والآراء استحق غيشيارديني، عن جدارة، لقب أبي التاريخ الحديث، واعتبر بحق كتابه «تاريخ إيطاليا» أحسن ما كتب عن التواريخ في عصره.

ج. نيكولو ماكيافيلي (1469-1527م):

ولد نيكولو ماكيافيلي (Nicolo Machiavelli) بفلورنسا في الثالث من شهر ماي 1469م، في أسرة نبيلة متوسطة الثراء، وقد سمح له وضعه الاجتماعي أن يتعلم اللغة اللاتينية في صغره، فتعرف على قواعدا وهو ابن السابعة، ثم استهواه التاريخ مع تقدمه في الدراسة وأعجب بأمجاد الشعب الروماني، وقد وجد في كتب تيتليف خير معين يغترف منه في دراسته للأحداث التاريخية واستخلاص العبر والتجارب منها، وأثناء ذلك انكب على دراسة القانون، وهذا ما ساعد على نضج شخصيته، ففرض شخصيته على المتعاملين معه، فقد كان -حسب وصف معاصريه- جسمه النحيل ووجهه الشاحب وخديه الخائرين وعينه السوداوتين الحادثتين وشفثيه الرقيقتين المطبقتين، تخفي رجلا حاد الذكاء، عميق التفكير، ميالا للتنظير، جعل إرادة الطبيعة والخير مصدرا لعمله، واعتزازه وحبه لوطنه منطلقا لمواقفه التي يتشبث بها بكل تعصب وعناد، ولعل هذا ما جعله يرى



قضية الشعب هي القانون الأعلى وأن انقاذ إيطاليا مدعاة لتسخير كل القوانين الأخلاقية، وهذا ما سمح له بالتعرف على واقع مجتمعه.

فلقد اندمج ماكيافيلي في الحياة العامة عندما تولى الوظائف ببلده فلورنسا واشتغل بالسياسة بعد ترقية أسرة ميديتشي من السلطة والأخذ بالنظام الجمهوري عام 1492م. فخدم حكومة فلورنسا بكل تقان وإخلاص، وهذا ما أهله لأن يصبح وهو في التاسعة والعشرين من عمره (1498م)، أميناً لمجلس العشرة «مجلس الحرب» (Dieci della Guerra) المكلف بتأمين العلاقات الإدارية مع المدن التابعة لجمهورية فلورنسا.

ظل ماكيافيلي في منصب أمين مجلس العشرة مدة ناهزت أربعة عشر عاماً، رقي خلالها من مكلف بحفظ سجلات المحاضر والجلسات إلى أحد أعضاء أمانة سر إدارة الجمهورية، وهذا ما سمح له بأن يقوم بمهام سياسية يتكليف من حكومة فلورنسا داخل إيطاليا وخارجها، فاتصل بسيزار بورجيا في أوربينو (Urbino) (1502م)، وتولى رئاسة بعثة دبلوماسية إلى البلاط الفرنسي بعد أن مرض رئيس البعثة دالأكاسا، فاستقبل من طرف الملك لويس الثاني عشر سنتي 1500 و1504م، وسافر في سفارة أخرى في نفس الفترة إلى سيزار بورجيا مرافقاً للأسقف سلوريني (1502م)، ثم تكررت السفارة في العام التالي، وأثناءها أعجب ماكيافيلي، وهو رجل الأفكار والسياسة، بالأمير سيزار بورجيا لشدة بأسه وإقدامه، فوجد في بطشه وقضائه على خصومه مثالا لسلوك الحاكم الذي تتطلبه أوضاع إيطاليا آنذاك، كيف لا وبورجيا الطاغية تمكن في فترة قصيرة من القضاء على أكثر من عشرة طغاة مستبدين وأخضع أكثر من عشر مدن رافضة لحكمه.

ولقد تأكدت هذه القناعة لدى ماكيافيلي عندما تحول في مهمة رسمية إلى روما مركز البابوية، وعندما سمحت له الظروف أن يتصل بإمبراطور جرمانية (1507م). وهذا ما دفع ماكيافيلي إلى القول بضرورة إنشاء قوة من أبناء البلاد للدفاع عنها بدل الالتجاء إلى تجنيد المرتزقة، وهذا ما أخذ به حكام فلورنسا الذين شكلوا قوة من الحرس الأهلي



تتكون في غالبيتها من أبناء النبلاء (1507م)، وأؤكلوا قيادتها إلى ماكيافيلي (1508م)، فنجح على رأسها في تحقيق الانتصار على بيزا التي تمكن من الاستيلاء عليها بعد محاصرتها، الأمر الذي سمح له بتولي أمانة (كتابة) لجنة الحرية والسلام المؤلفة من عشرة أعضاء والمكلفة بالنظر في شؤون الدفاع عن حرية وشرف سفراء وممثلي فلورنسا. وهذا ما سمح له أيضا بالانتقال في سفارة إلى فرنسا (1510م) حيث لاحظ مدى اعتزاز الفرنسيين باستقلالهم في الوقت الذي كان فيه الإيطاليون لا يولون قضية استقلال بلادهم أي اهتمام أمام مصالحهم الخاصة.

قلب الدهر ظهر المجن لماكيافيلي عند تولي أسرة ميديتشي الحكم في فلورنسا سنة 1512م، بعد أن أسقطت جيوش الحلف المقدس التي اجتاحت إيطاليا حكومة الجمهورية التي كان ماكيافيلي أحد أعضائها، فاستغني عن خدماته بعد أن تعرض للمضايقة والاعتقال، ثم فرضت عليه الإقامة بمنزله الريفي بسان كاسيانو (San Casciano) القريب من فلورنسا، حيث عاش مع زوجته وأبنائه الأربعة، خمسة عشر سنة من حياته يعاني العزلة ويتجرع مرارة الإهمال والنسيان ولا يجد ما يعزي به نفسه سوى قراءاته في كتب التاريخ واعتكافه للكتابة واشتغاله بتسجيل ملاحظاته في السياسة والاقتصاد والحرب والدين.

لم يستسلم ماكيافيلي لحياة العزلة والبعد عن الحياة العامة فعاوده الحنين إلى ممارسة السياسة وتولي المسؤولية عندما تغيرت الأوضاع بفلورنسا، فقد اجتاحت الجيوش الإسبانية-الجرمانية المدينة بعد أن ألحقت الهزيمة بفرانسوا الأول في بافيا (1525م)، فبادر ماكيافيلي إلى المساهمة في الجهود الرامية لاستعادة المدينة وقدم تقريراً عن كيفية تدعيم تحصيناتها، فنال رضا البابا وتزكية حكومة ميديتشي وأصبح أحد أعضاء لجنة الدفاع عن المدينة (مارس 1526م)، لكن جهوده باءت بالفشل عندما داهمت جيوش الإمبراطور شربكان مدينة فلورنسا في طريقها نحو روما فعاد الحزب الجمهوري وهو حزب العامة ليحكم فلورنسا (16 ماي 1527م)، وعندها طالب ماكيافيلي العودة إلى



منصبه القديم وهو أمين مجلس العشرة، فلم يجد القبول لدى الحكام الجدد لصلاته السابقة مع آل ميديتشي، وعندما تيقن ماكيافيلي بأن دوره السياسي ومكانته في الحياة العامة قد انتهت، انزوى من جديد في منزله الريفي ليعيش منكبا على المطالعة مشغلا بالتأليف الذي وجد فيه خير عزاء له وأفضل وسيلة لفرض مكانه بين مشاهير وعظماء عصره.

وجد ماكيافيلي خير رفيق له منذ اعتزاله السياسة كتب المؤرخ الروماني تيتليف (59 ق.م / 17م)، فواظب على دراستها وتسجيل ملاحظاته عن الأجزاء العشرة الأولى التي تتناول التاريخ الروماني منذ نشأة روما (753 ق.م) وحتى عام 293م، فاستنتج منها أن سر نجاح روما السياسي والعسكري يكمن في مواصفات جيشها وطبيعة دستورها ونوعية تنظيماتها المدنية. كما وجد في تاريخ بوليب (Polypius) (204-222 ق.م) خير معين على استكشاف العلل والمسببات وما يسفر عنها من نتائج وتأثيرات، وهذا ما أقنعه بأن هناك تناسقا بين مظاهر الطبيعة ونتائجها، بحيث يصبح من المستحيل أن يسند جذع ضعيف فرعا ثقيلا، كما أن السبب يتحكم في النتيجة بشكل أو آخر، وأن النتائج المتماثلة قد تنتج في بعض الأحيان عن أسباب مختلفة إن لم تكن متعارضة.

لم يقتصر ماكيافيلي على استخلاص الحكمة من كتب التاريخ، وإنما استقرأها أيضا من سلوك حكام عصره، وهذا ما جعله يتأثر بممارسات الحكام الذين تعرف عليهم وخاصة باباوات روما، فالبابا الإسكندر السادس «بورجيا» الذي كان يجزي العطاء ويفقد الهبات على مناصريه ويوزع المال الكثير على الفنانين والأدباء، كان لا يتردد -وهو المرجع الروحي للمسيحيين- في تشجيع الأتراك المسلمين على مهاجمة دولة البندقية المسيحية، كما كان لا يرى مانعا من اقتراف أبشع الجرائم لتصفية خصومه ومنافسيه، فمع كونه حارس الاخلاص والداعي إلى السلام بحكم وظيفته فإنه قد عمل على اغتيال الكرادلة ليرث ثرواتهم، حتى قيل عنه «أنه من لم يمت بسيف بورجيا مات بسمه»، فقد قتل ثلاثة كرادلة بالسم وهم أوربيني وفراري وميكيل، وحاول اغتيال رابع

هو ديلاردي فيري، الذي تولى بعد ذلك منصب البابوية باسم يوليوس الثاني. كل ذلك جعل ماكيافيلي يرى أن واقع الشيء وليس مظهره هو أساس الحكم والتقييم، فأقرب الناس إلى كنيسة روما -حسب قوله- هم أبعدهم عن الدين، وهذا ما جعله يسخر من موقف رجال الكنيسة على عصره ويتهكم عليهم بقوله: «علينا أن نشكر الكنيسة إذا كنا بلا دين!».

أجمل ماكيافيلي في كتابه الأمير (Le Prince) تجاربه ونظرته للحكم، كما عرض ملاحظاته وتعليقاته على المسائل السياسية وأسلوب الحكم في كتابه المطول المعروف بالأحاديث أو المطارحات (Les discours)، بينما كان تأليفه كتاب «فن الحرب» نتيجة لأحداث عام 1516م، فانتهى من صياغته 1518م، وأتم تنقيحه ومراجعته سنة 1520م، ليقدمه إلى لورانزو دي فيليبيني تستروتزي، ويصبح متداولاً بعد طبعه عام 1521م. وأثناء ذلك واطب ماكيافيلي على تسجيل أحداث تاريخ فلورنسا، معتمداً فيها على المصادر المتوفرة بأكاديمية فلورنسا التي كان يرعاها الكاردينال ميديتشي الذي سوف يصبح لاحقاً البابا كليمنت السابع. فانتهى من العمل بعد عدة سنوات (1520م)، وظهر الكتاب في ثمانية مجلدات تعالج تاريخ فلورنسا حتى عام 1492م، وقدمه إلى البابا كليمنت السابع في روما، وتولى طبعه أنطونيو بلادو ليكون في متناول جمهور الفلورنسيين.

لم تقتصر كتابات ماكيافيلي، التي تعكس مستوى اللغة الإيطالية في مرحلة نموها وتطورها، على قضايا السياسة والحرب وأحداث التاريخ، بل كانت له مشاركة معتبرة في الإبداع الأدبي، فقد أنجز قصة جمعت أسلوب الفكاهة وطابع الهجاء، كان موضوعها زواج بلفوغور أرثشيديافولو (Belfogor Archidiavolo) وأخرج كذلك مسرحية ماندراجولا (Mandragola) (1520م) التي عبر فيها عن أخلاق عصره بأسلوب شيق، نالت نجاحاً كبيراً في أوساط فلورنسا (19).

وحتى يمكن التعرف أكثر على إسهام ماكيافيلي في قضايا السياسة ومسائل الحكم وأخذ فكرة أوضح عن نظرته لسير التاريخ وفهمه وتقييمه لأحداث الماضي، فإننا نحاول التعريف بأهم كتابين له في هذا المجال وهما «المطارحات» و«الأمير».



1. «المطارحات» أو «الأحاديث»: هي في أساسها تعليقات وملاحظات عن الكتب العشرة الأولى من تاريخ تيتوس ليفيوس واقتباسات من تاريخ بوليبيوس. قصد منها ماكيافلي استقراء وتحليل أحداث التاريخ للانتفاع بها وتطبيقها في ممارسة الحكم وفي معالجة القضايا السياسية والأمور العسكرية انطلاقاً من سلوك الحكام المعاصرين له. ولهذا حرص على أن لا يختار من أحداث التاريخ الروماني إلا الجوانب التي تؤيد النتائج التي قادته إليها تجاربه وأفكاره، فجاء الكتاب انتقائي في أمثلته، هادف في عرضه، يسخر الماضي لخدمة الحاضر، ويستعمل التاريخ كميدان لاكتساب الخبرة والتمرس على معالجة القضايا المطروحة على الحكام.

استغرق إنجاز كتاب المطارحات خمس سنوات متتالية (1512-1518م)، فكان ثمرة للقراءات المتأنية والتسجيل المتواتر للملاحظات، وهذا ما جعل مؤلفه يرى فيه حصيلة لجهده وخلاصة لتجاربه، فقدمه إلى دزابوني بونوديلمونتي (Zaboni Bunodelmonti) مغرباً له في مقدمة اهدائه أنه إنجاز عظيم جدير بمقامه، فقد ورد هذا التقديم بهذه العبارة التي توضح رأي ماكيافلي في كتاب المطارحات: «أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك لأنها تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة». ومع ذلك فإن طبع الكتاب ونشره تأخر حتى بعد وفاة ماكيافلي، فظهرت طبعته الأولى بتسريح من البابا كليمنت السابع وتولى نشرها أنطونيو بلادو (1532م).

يشتمل كتاب «المطارحات» على مائة واثنين وأربعين مطارحة أو قضية موزعة على ثلاث كتب (20):

الكتاب الأول: يتعرض للقرارات التي اتخذها الرومان في شؤونهم الداخلية، ويتضمن ستين مطارحة موزعة على عدة مواضيع، الأول يتناول تطور الدستور في روما فيما يتصل بأحسن أنواع الحكم ومسألة الدين وقضية الانتقال من العبودية إلى الحرية مع تسجيل للآراء المختلفة عن ملوك روما والأفكار المتداولة عن أنواع جديدة من الحكم بالإضافة إلى ملاحظات عن نكران الجميل ومنافع الديكتاتورية ومساوئها وأسباب



الدمار، ومعلومات مفيدة عن مجلس العشرة وقضية الاشتراك في الحكم وفي قيادة الشعب ومزايا الحكومة الشعبية.

الكتاب الثاني: عالج فيه مسائل تتصل بتطور ونمو الإمبراطورية الرومانية في ثلاث وثلاثين مطارحة، تعرض فيها للإجراءات التي اتبعتها الشعب الروماني في تلك المرحلة من حيث طرق التوسع وأساليب الاستيطان وكيفية ممارسة الحروب ومعالجة المسائل الديبلوماسية وتكوين الجيوش والمحافظة على انضباطها واحداث إدارة للأراضي التي تم احتلالها وما ينتج عنها من مشاكل وأخطاء أثناء الحرب أو عند معاملة روما للدول والمدن المجاورة لها.

أما الكتاب الثالث: فهو يسرد وقائع تاريخ روما، ويعدد ما قام به الرومان من أعمال بطولية ومواقف ملحمية في تسع وأربعين مطارحة موزعة على مواضيع عدة منها قضايا إصلاح الدولة وإقرار الأمن والقضاء على المنافسين وإخماد المؤامرات، من خلال الإجراءات التي اتخذها حكام روما في سعيهم لإقرار الأمن الداخلي وفي إدارتهم لشؤون الحرب ومسائل الإدارة مع تسجيل ملاحظات عن حروب روما مع السمنيين والاحتياطات التي اتخذتها من أجل المحافظة على الحرية في النظام الجمهوري القائم على مصالح الشعب باعتبار أن هذه المصالح هي الشريعة العظمى التي تقتضي المشورة والتحلي بثقة النفس ورباطة الجأش في أوقات المحن والأزمات.

2. كتاب «الأمير»: هو عرض مختصر للتقايد الإضافية التي سجلها ماكيافيلي أثناء دراسته للكتب العشرة من تاريخ تيتليف التي شكلت أساس كتابه «المطارحات»، وهذا ما جعل ماكيافيلي يضع له عنوانا معبرا عن مضمونه وهو «الأصول» (Principes)، لكن هذا العنوان حور بعد وفاة جوليانو دي ميديتشي الذي كان يعتزم إهداء الكتاب له، فاختار له عنوان «الأمير» ليتمكن من تقديمه إلى الأمير لورانزو دوق أوربينو الذي جعل منه مثالا للحاكم الذي تتطلبه أوضاع إيطاليا.



بدأ ماكيافيلي كتابه «الأمير» سنة 1513م، وبعد أن انتهى منه وأدخل عليه تعديلات (1516م)، ظل مخطوطاً ولم يطبع إلا بعد وفاة ماكيافيلي، ولم تصدر الطبعة الأولى عند أنطونيو بلادو إلا بعد أن حصل الكتاب على تسريح من البابا كليمنت السابع، ثم توالى بعد ذلك طبعاته، وتمت مع مرور الزمن ترجمته إلى أغلب اللغات ومنها اللغة العربية (21).

تناول ماكيافيلي في كتابه «الأمير» ما استخلصه من ملاحظات حول قضايا الحكم وسلوك الحكام وممارسة السلطة اعتماداً على تعليقاته حول أحداث تاريخية تتعلق بالإمارات والممالك التي ظهرت بإيطاليا، وهي مع كونها جاءت في ست وعشرين باباً إلا أنها من التنوع والتداخل ما يصعب على الدارس تصنيفها في نقاط محددة، هذا وقد ارتأينا من أجل التعرف على مضمونها تصنيفها بصفة إجمالية إلى ثلاثة أقسام حسب الاهتمامات والمواضيع؛ القسم الأول يشتمل أحد عشر باباً يتناول فيها ماكيافيلي أنواع الحكومات من حيث طبيعتها وكيفية التعامل معها والمحافظة عليها والشروط المتوجبة لحكمها والتعامل معها، وقد وردت تحت العناوين التالية:

1. أنواع الحكومات المختلفة والطريقة التي أنشئت بها.
2. الملكية الوراثية.
3. الملكية المطلقة.
4. الأسباب التي حالت دون ثورة مملكة داريوس (دارا) التي احتلها الإسكندر ضد خلفاء الإسكندر.
5. حكم المدن والممالك التي كانت قبل احتلالها تعيش في ظل قوانينها الخاصة.
6. الممالك المحكومة حديثاً بقوة السلاح الخارجي وبالقوة وبالكفاءة.
7. الممالك التي تم احتلالها بمساعدة الآخرين أو بمعونة الحظ.
8. أولئك الذين يصلون إلى الإمارة عن طريق النذالة.
9. الإمارات المدنية.



10. كيف تقاس قوة جميع الدول.
11. الإمارات الكنسية.
- أما القسم الثاني من كتاب «الأمير» فيشتمل على ثلاثة أبواب (الأبواب 12، 13، 14)، يتناول فيها مكيافيلي مسائل متعلقة بتكوين القوة العسكرية وعوامل القوة وأسباب الضعف المتصلة بها في الأبواب التالية:
12. الأشكال المختلفة للمتطوعة والجنود المرتزقة.
13. القوات الإضافية والمختلطة والأصيلة.
14. واجبات الأمير اتجاه المتطوعة.
- بينما يضم القسم الثالث من كتاب «الأمير» اثني عشر بابا، فقد عالج فيه مكيافيلي خصال وسلوك الأمير ومزاياه وحسن تصرفه وما يفترض فيه من خبرة لتحقيق أهدافه وضمنان أمن وسلامة مملكته، وقد اشتملت هذه الأبواب المواضيع التالية:
15. الأمور التي يستحق عليها الرجال ولا سيما الأمراء المديح أو اللوم.
16. السخاء والبخل.
17. الرأفة والقسوة وهل من الخير أن تكون محبوبا أو مهابا.
18. كيف يتوجب على الأمير أن يحافظ على عهوده.
19. واجبنا تجنب التعرض للاحتقار والكراهية.
20. هل القلاع وغيرها من الأشياء التي يبتكرها الأمير نافعة أو مؤذية.
21. كيف يعمل الأمير لاكتساب الشهرة.
22. قدرة الأمير وتبصره في اختيار وزرائه.
23. كيفية الإعراض عن المنافقين.
24. لماذا فقد أمراء إيطاليا دولهم.



25. أثر القدر في الشؤون الإنسانية وكيفية مقاومته.

26. الحرص على تحرير إيطاليا من البرابرة.

جاء كتاب الأمير معالجة واقعية لنظام الحكم من منطلق تقديم النصح وعرض التجربة لتحقيق «حكم أمير قوي» يمتلك الوسائل الكفيلة بتوحيد إيطاليا بغض النظر عن المثل الأخلاقية والمعاملات المتعارف عليها، وهذا ما أوضحه ماكيافيلي لصديقه فيتوري (Vittori) عندما كاتبه من منزله الريفى برسالة جاء فيها: «إنني ألفت كتابا في الإمارة ... بحثت فيه طبيعة الإمارة وعدد أنواعها وطريق الوصول إليها والاحتفاظ بها وسبب ضياعها» (22).

لقد نال كتاب الأمير حظوة لدى القراء لطرافة موضوعه وحدة طرحه وجراءة أفكاره وجزالة لغته التي جانبت التعقيد وابتعدت عن غموض العبارة وتميزت بالأسلوب المسترسل والسهل وبالعرض المنطقي للأسباب والأحداث والنتائج، وإن كان في ذلك تجاوز لتطورات عصره الحافل وارتباط بأحداث التاريخ الروماني الذي لا ينتمي إليه ولم يعد من الممكن إعادته أو إحيائه أو تلمس آثاره. ولعله في ذلك كان متأثرا بماضي روما المجيد ومعجبا بانجازات الشعب الروماني، الأمر الذي جعله يهمل الحياة الثقافية الحافلة لعصر النهضة بإيطاليا، بل دفعه ليستقرئ تجارب القدماء ويستشهد بالفقرات العديدة من كتاباتهم.

هذا بخصوص حياة ماكيافيلي ونتاجه، أما من حيث مكانته في عصره وبيئته، فماكيافيلي يعتبر بحق إحدى الشخصيات التي عبرت عن روح عصر النهضة (ق. 15-16م)، وحاولت التعامل مع واقعه وفهم توجهاته، فكان بحق نتاج بيئته ولسان عصره، لقد جاءت أفكاره ومواقفه وتحليلاته انعكاسا صادقا لروح النهضة بإيطاليا ومفهومها للحياة وموقفها من الفرد ونظرتها للثقافة الإنسانية باختلاف أصنافها وتعدد معارفها من تاريخ وأداب واقتصاد وسياسة وحرب ودين.



اعتمد ماكيافيلي في ذلك على الموازنة والمقارنة بين أخلاق القدماء من إغريق ورومان وسلوكات العصر الوسيط وتصرفات الكنيسة، فقدر في الإغريق القدماء حبهم للجاء والصحة والقوة البدنية وسعيهم الدؤوب للتمتع بنعم الحياة ولذاتها، ولو أدى بهم ذلك إلى تقديس الأبطال والمشرعين وتآليه الحكام وتقديم القرابين لهم(23)، هذا في الوقت الذي نقم فيه ماكيافيلي على قيم المسيحية التي سخرت من الحياة وضحت بها من أجل الآخرة، ومجدت التواضع والزهو والتأمل والانعزال، فأوهنت بذلك عزيمة الإنسان وتركت المبادرة لأهل العنف والجرأة الذين استبدوا بالناس الذين جعلتهم مواعظ المسيحية يتحملون المعاناة والظلم أملا في حياة الآخرة الموعودة(24).

إن موقف ماكيافيلي المعبر عن روح النهضة بأوروبا لم يكن صادرا عن معاداة الدين أو التنكر لضرورته لحياة المجموعة البشرية وإنما كان صادرا عن سلوكات القناعة والتقاعس التي نتجت عن سلوك المؤسسة الكنسية في ممارستها للشعائر الدينية وفهم رجال الدين للمعتقد المسيحي، وهذا ما جعل ماكيافيلي يرى أن اتباع الأنظمة الدينية واحترام المعتقد سببان في عظمة الدول كما عرف ذلك الرومان قديما على عهد الجمهورية، كما أنه لم يفته أن يلاحظ أن إهمال هذه النظم المتمثلة في العقيدة قد يؤدي إلى خراب الدول، فالبلدان التي ينعدم فيها خوف الله لا محالة تتعرض للهلاك، وهذا ما يتطلب من الأمراء إذا أرادوا الإبقاء على أنفسهم أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية وأن يولوها الاحترام اللائق بها.

وبهذا الموقف فإن نقمة ماكيافيلي على المسيحية صادرة عن عجزها عن إيجاد مواطنين يماثلون في أخلاقهم معتنقي الديانات الوثنية القديمة التي كانت ترى أن أعلى درجات الخير هو تحكيم العقل وقوة الجسم وكل ما يبيعث في الناس الإقدام والجرأة والشجاعة، وهذا ما جعله يتقبل اللاهوت المسيحي لأنه نظام يتصل بالمعتقدات، ويرفض السلوك المسيحي لارتباطه بمبادئ أخلاقية تحتقر الأمور الدنيوية وتضعف عزيمة الإنسان وتحد من تطلعه لفرض نفسه وتحقيق ذاته. ولعله في ذلك كان متأثرا بقراءاته



للآداب الكلاسيكية المعبرة عن الأخلاق الوثنية والقائمة على سلوك الأفراد بعيدا عن القيم الأخلاقية للكنيسة.

لقد تفهم ماكيافيلي توجهات عصره الذي بدأت فيه الإمبراطوريات القوية كإمبراطورية هابسبورغ والممالك المركزية كفرنسا وإنكلترا وإسبانيا تتنافس من أجل السيادة على أوروبا وتحاول مد نفوذها على الأقاليم التي ظلت منقسمة إلى إمارات وجمهوريات مدن متنافسة، كما هو الحال عليه بإيطاليا، وهذا ما جعل ماكيافيلي يحاول تقديم أفكار متجاوبة معها، بل دفعه إلى حد الاقتناع بحاجة إيطاليا إلى وحدة سياسية تحت قيادة أمير قوي ينقذها من الدمار الذي ألحق بها بفعل غزوات الجيوش الأجنبية ويخلصها من عبث الجنود المرتزقة الذين كانوا عماد قوة الإمارات المتنافسة، فإيطاليا حسب قوله: «تبتهل إلى الله في كل يوم أن يبعث إليها من ينقذها من هذه الفظاظة البربرية والحقم الأعمى، إنها على استعداد وتواقة إلى اللحاق بكل راية شريطة أن يكون هناك من يحملها ويرفعها» (25).

لقد تجاوز ماكيافيلي في قراءته للتاريخ وتحليله لوضع إيطاليا مصالح إمارة فلورنسا إلى متطلبات البلاد الإيطالية، فانتبه إلى أن التاريخ بأوروبا على عصره يتجه نحو تأسيس كيانات أو تكوينات سياسية أكبر حجما وإلى أن وحدة إيطاليا السياسية هي الاستجابة الموفقة لهذا التوجه، فهي كفيلة بتحقيق القوة والمنعة والعزة للإيطاليين، وبذلك تتجاوز إيطاليا محنتها وتتقلب على مأسيتها التي جعلت سكانها حسب قول ماكيافيلي: «مستعبدين أكثر من اليهود ومضطهدين أكثر من الفرس وممزقين أكثر من اليونانيين، لا زعيم لهم ولا نظام، مغلوبين على أمرهم ومسلوبة أموالهم وممزقين وأذلاء» (26).

لقد رأى ماكيافيلي في الكنيسة الرومانية العائق الذي حال دون وحدة إيطاليا، فنقم عليها لكونها مصدر فرقة وانقسام، واعتبر الكرسي البابوي بروما سببا في بقاء إيطاليا منقسمة على نفسها، وهذا ما دفعه إلى مهاجمة الكنيسة لا من أجل سلطتها الزمنية وإنما لاستخدامها كل الوسائل للابقاء على أوضاع إيطاليا منقسمة، وبذلك تمت



التضحية بوحدة إيطاليا من أجل المحافظة على استقلال البابوية واحتفاظها بسلطانها الزمنية.

إن الأضرار التي لحقت بإيطاليا جراء الجنود المرتزقة والجيوش الغازية والتناحر بين الحكام والمنافسة بين الحكومات المحلية جعلت ماكيافيلي يعتبر أن الوقت قد حان لظهور أمير قوي يتصف بالدهاء والحكمة والشجاعة والقسوة، ليضع حدا لوضع إيطاليا المزري ويضطلع بمهمة توحيد البلاد وإصلاح الدولة، وقد رأى في الأمير سيزار بورجيا ابن أخ البابا السفاح إسكندر السادس الشخصية المؤهلة لهذا العمل العظيم لما يتصف به من جرأة وقوة ودهاء، فتوجه إليه في خاتمة كتابه الأمير الذي أهداه له بقوله: «ولا نرى في الوقت الحاضر في أي أسرة يمكن أن يودع فيها الأمر (يعني توحيد إيطاليا وإرجاع مجدها) غير أسرتكم المجيدة، فهي بمواهبها وبفضل رضا الله والكنيسة ... يمكن أن تتبوأ مقعد الزعامة لتحقيق هذا الخلاص ... وهذا لا يصعب عليكم إذا وضعتم بين أعينكم الحوادث والأشخاص الذين ذكرتهم، ورغم أن هؤلاء كانوا قليلي العدد ومبدعين إلا أنهم كانوا رجالا وكل واحد منهم سنحت له فرصة أقل مما هي متاحة لكم ... وحتى يتحقق تحت إشرافكم ما قاله بترارك إن القيم العريقة التي كانت تستفز قلوب الإيطاليين لم تمت بعد» (27).

لقد ساهم ماكيافيلي في تطوير الدراسات التاريخية في عصر النهضة بمحاولة قراءة التاريخ قراءة نقدية متفتحة على الواقع قائمة على تحليل الأحداث واستخلاص التجارب منها فيما يتصل بالسياسة والحرب وما يتعلق بمفهوم السلطة وإشكالية الحكم، فكان بحق أحد أعلام المدرسة التاريخية في القرن السادس عشر، بل اعتبر مجددا فيما يتعلق بتوجه التاريخ نحو مجال السياسة وقضايا الحكم، فأبعده المشتغل بالتاريخ عن تسجيل الأحداث ورواية الأخبار وعرض الوقائع، فاكتمل بذلك جانب كان ناقصا لدى مؤرخي عصره، وهذا ما يتطلب منا التعرف على طريقة ماكيافيلي في معالجته للتاريخ وكيفية استخلاص التجارب منه في النقاط التالية:



1 - التزم ماكيافيلي في دراسته للتاريخ بنظرته الواقعية لتطور التاريخ ومفهوم انساني لأحداثه، فقد حرص على أن يرى حقائق الحياة كما هي في الطبيعة، فلا يتوقع منها أكثر مما تسمح به، وهذا ما جعله يبتعد عن المثاليات، ولا يتردد في عرض سلوكيات ومواقف معاصريه بصراحة وبدون مواربة أو تحفظ، فعبر بذلك عن قيم مجتمعه الفلورنسي الذي تحكمت فيه النزعة المادية التي جعلت الطموح منطلق النجاح والانسحاب من الصراع مدعاة للفشل، وأن الاستصغار والهوان صفتان مذمومتان لأنهما تلازمان أصحاب النفوس الضعيفة الذين اعتبرهم ماكيافيلي لا يعدون من الأحياء بل يعتبرون من الأموات، وأن الخداع من خلال وجهة نظر ماكيافيلي الواقعية قد يكون في أي عمل من الأعمال كريها وممقوتا إلا أنه في إدارة الحروب وسيرها أمر جدير بالثناء والتمجيد، «فالرجل الذي يقهر خصمه عن طريق الخداع يستحق الثناء تماما كالمرء الذي يقهر خصمه بطريق القوة» (28).

إن هذه النظرة الواقعية التي تحكم على الأعمال بالنتائج التي سوف تسفر عنها وليس انطلاقا من النيات الدافعة لها، هي التي جعلت ماكيافيلي يرى في الحيلة والخديعة شيئا مقبولا لأنهما وسيلة لتحقيق النصر ولئيل المجد، فكانت نظريته هذه بمثابة صدمة عنيفة للرأي العام المتأثر بالمثاليات والذي يرفض ما يتطلبه الواقع من التصرفات بحجة التمسك بالقيم والأخلاقيات بعيدا عن واقع الحياة.

لم يرفض ماكيافيلي واقع مجتمعه وميول عصره الطافح بالمؤامرات والدسائس والخداع والذي أصبحت فيه -حسب قوله- «الردائل الهدامة ميزة السلوك العام»، وهذا ما جعله يتخلى عن ميله للنظام الجمهوري الذي أعجب به واعتبره سر نجاح روما وأساس عظمة الرومان، بل رأى من الضروري خضوع إيطاليا لحكم ديكتاتوري طالما أبدى نفوره منه، لأن هذا النظام يقوم على حكم طاغية قاس يخلو قلبه من الرحمة والخوف، يتجاوز سلطة الكنيسة ومصالح النبلاء والأغنياء، ويستطيع توحيد إيطاليا والقضاء على المرتزقة، ولأنه كفيل بحفظ أخلاق الشعب ومصالحة الدولة عندما تنعدم الأخلاق الفاضلة وتزول دوافع الوطنية (29).



2 - بنى ماكيافيلي فكره السياسي وفهمه للتاريخ انطلاقاً من نظرة استقرائية تجريبية مقارنة لقضايا وأحداث التاريخ من أجل توضيح القواعد التي تقوم عليها الدول وتوضع على أساسها الدساتير وتنمو وتتطور بسببها الممالك والدول. فوجد في التاريخ الروماني ضالته واقتنع من خلال قراءة أحداثه أن المجتمعات البشرية تخضع في الصميم لناموس التاريخ الذي يعيد نفسه في تطور مستمر سواء في نشأة الدول وتكوين الممالك أو في وضع القوانين وسن الأحكام، سلكها مهما اختلفت الظروف والأحداث صادرة في أساسها عن العمل من أجل نيل السلطة والعمل على المحافظة عليها، سواء عن طريق اغتصاب السلطة قسراً أو بالتراضي والتعاقد الضمني بين الحكام والمحكومين القائم على تقبل الحاكمين المحافظة على حقوق ومصالح المحكومين مقابل خضوعهم وقبولهم بحكمهم لهم، فالناس، حسب ماكيافيلي «يهون عليهم تناسي موت آبائهم وأعزائهم متحملين ما قد يسلط عليهم من قسر وما يمارس عليهم من خداع، ولا يتناسون ضياع أملاكهم الموروثة»⁽³⁰⁾، وهذا ما يتطلب من الأمير أن يجعلهم متعودين على العيش ضمن الجماعة البشرية التي يمارس سلطته عليها. وفي هذا الإطار تعرض ماكيافيلي لمسألة الحرية، فرأى أن توجه مجتمعات أوروبا ومتطلبات عصر النهضة تقوم على وعي الناس المتزايد بالحرية وتحول الأنظمة من الاستبداد إلى مراعاة مصلحة الدولة ومتطلبات المجتمع والانضباط بالقوانين، فرأى أن الحرية سبب الرقي وأن الاستبداد مدعاة للفساد في حالة عدم استخدامه في غير خدمة مهمة إصلاح الدولة وفقاً لروح الدستور والقوانين المعمول بها⁽³¹⁾، وأن الأخلاق سبب قوة الأنظمة بل هي أساس قيام الدول واستمرار الأنظمة، كما أن الفضائل العسكرية القائمة على الانضباط والتضحية «أساس قوة الأمم وأن فقدانها هلاك للأمة وضياع للدولة، لأن الجيش لا يحتاج إلى الذهاب بل إلى الرجال»⁽³²⁾، وأن استقلال المدن سر عظمتها وثرائها وقوتها، وأن التوسع في مجال حرية الاختيار كفيل بتوسيع أفق الفضيلة⁽³³⁾.

وقد انتهى ماكيافيلي في قراءته للتاريخ الروماني بأن نظام الدولة الحرة كما عرفها الرومان القدماء جدير بالثناء والتقليد، كما دفعته معرفته بواقع الحياة بإيطاليا إلى



الاعجاب بالمجتمع السياسي الماركنتيلي الذي عرفته المدن الإيطالية (34). ومن هذا المنطلق عالج ماكيافيلي مسألة الحرية وقضية الاستقلال بالنسبة للمدن والإمارات التي عاشت حرة تحت قوانينها، فقد ذكر الخيارات المتاحة للحاكم للمحافظة عليها؛ فحصرها في ثلاثة خيارات، الأول يتمثل في تحطيمها، والثاني يدعو إلى تعميرها بعناصر بشرية ومالية للحاكم الذي استولى عليها، والثالث يحبذ تركها تعيش حسب قوانينها بعد أن تؤسس بها حكومة أقلية من الناس تدين بالولاء والصداقة للحاكم، لأن وجود هذه الأقلية مرهون بعطف ومساعدة هذا الحاكم (35).

3 - عمل ماكيافيلي على نقل التاريخ من الغرض التربوي والأخلاقي من أجل اكتساب الحكمة إلى الدراسة التحليلية من أجل تحقيق غايات نفعية «براغماتية» (Utilitarisme). فلم يضع نفسه في موقف المؤدب وداعية أخلاق ومبادئ، ولم يجار معاصره كاستليوني صاحب كتاب «رجل الحاشية» الذي نال رضا معاصريه عندما صور في رقة ولطف سلوك الأمير المثالي، فأصبح كتابه مرجعا في آداب السلوك لكل رجل مهذب يريد الالتزام بقواعد الكياسة واحترام الأعراف والقيم الأخلاقية المتعارف عليها.

لقد عبر ماكيافيلي من موقفه البراغماتي بصدق عن روح عصر النهضة بواقعيته ونفعتها وطموحاتها ونقدها للواقع وأملها في المستقبل، وهذا ما دفعه إلى القول بضرورة فصل الأخلاق عن السياسة وتحييد الاعتبارات الأخلاقية المجردة في ممارسة السلطة، فنادى من هذا المنطلق باستقلال الحكام الذين يمارسون السلطة الزمنية عن توجه الكنيسة ونفوذ الكهنوت الروحي. وكانت حجة في ذلك قراءته للتاريخ الروماني الذي رأى في أحداثه وتطورات التعبير الصادق عن الظواهر الطبيعية والتكريس الفعلي لسلوكات بشرية سواء في حالة قوتها أو ضعفها أو في فترة صعودها أو انحطاطها. مما يوجب على الأمير، حسب رأي ماكيافيلي، الانتفاع بتجارب الماضي للوصول إلى الأهداف النفعية التي يسعى لتحقيقها، هذه الأهداف التي تقتضي من الحاكم حسن



التدبير والاعتدال واستعمال العقل من أجل الوصول إلى غايتين ضرورتين لممارسة الحكم واستمرار السلطة، وهما توطيد الأمن في دولته وكسب الأصدقاء، وهذا ما يتطلب من الأمير عند ممارسته لسلطته أن يفترض بادئ الأمر أن الناس جميعا أشرار ومستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة للكشف عنها، كما يفرض عليه أن يبادر بالانقلاب على أعدائه سواء باستعمال القوة أو الالتجاء إلى الحيل، وبذلك يبيت في قلوب الناس حبه والخوف منه في آن واحد، وإن كان عليه الخيار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبه أو أن يحبه دون أن يخافه، فيتوجب عليه تفضيل الخيار الأول لأن الخيار الثاني «يؤدي إلى صياع المراد من حفظ سلامته» (36).

ومن هذا المنطلق حدد ماكيافيلي مواصفات الحاكم الكفء انطلاقا من نظريته الواقعية وخبرته وتجاربه في التعامل مع الأفراد والجماعات، فاعتبر السلوك البشري الذي تتحكم فيه الأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية والسياسية بمثابة ظاهرة متكررة منتظمة متجددة، مما يجعل من الطبيعة البشرية، حسب رأيه، غير قابلة للتبدل والتحول، وهذا ما عبر عنه بقوله: «إنني أعتقد أن العالم كان هو عينه على الدوام، وأنه كان يحتوي دائما كل ما يحتويه الآن من خير وشر، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات» (37).

ومادام الأمر كذلك فإن تجاهل الواقع ومحاولة رسم صورة لما يجب أن تكون عليه الأمور غير المنطقية يعد من الأسباب التي تؤدي إلى سقوط الحكومات وضياع الأمراء، فالفرق شاسع بين النظرة للأوضاع كما هي وتلك التي تتجاهل الحقيقة وتحاول أن ترى الشيء كما تريده وتهواه، وهذا ما جعل ماكيافيلي لا يتردد في إبداء رأيه من أن الحاكم الذي يريد أن يكون رجل خير لن يستطيع الحفاظ على وجوده وسط العديد من أولئك الذين ليسوا بخيرين (38). وهذا ما يبرر الالتجاء إلى القسوة والخداع وإلى استعمال



الحيلة، لأنها كفيلة بالوصول بالإنسان إلى منزلة رفيعة أكثر بما تسمح به القوة والعنف(39)، فالأمير حسب قوله يجب عليه «أن يقلد الثعلب والأسد معا ... فيكون ثعلبا ليميز الفخاخ وأسدا ليرهب الذئاب ...»(40).

فماكيافيلي انطلاقا من التجربة التاريخية يرى أن أساس قوة الأمير هو اتصافه بالحنكة لأنها أساس الملك، فهي تمكنه من توفير الأمن في داخل إمارته وبسط نفوذه خارجها، ولهذا يتوجب عليه الالتزام بسياسة أساسها اكتساب القوة وضمان النجاح، وهذا ما يوجب على الأمير التحلي بسلوك الحذر والقسوة، فعليه أن يتنكر لكل سلوك أو عمل لا يخدمه، كما عليه أن يكون طاغية وإنسانيا في آن واحد، مستبدا وعادلا في وقت واحد، فلا يعطي الحرية للناس إلا بالقدر الذي لا يسيئون فيه استعمالها، وعليه استخدام الخير والشر حسب الحاجة وتجنب الفضيلة في وسط ليس فيه سوى الأشرار، فمن الضروري على كل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير(41)، فالفضيلة وسط مجموعة من الأشرار مهلكة، والقسوة من أجل إخضاع الغير موقف حكيم، ولهذا يتوجب على من يرغب في الحفاظ على دولته أن يرتكب الشر أحيانا(42)، وأن لا يتردد في استخدام كل وسيلة بغض النظر عن كونها خيرة أو شريرة في حد ذاتها، فمن حق الحاكم عند الضرورة أن يمارس الشر وأن يلجأ إلى الخداع لقهر خصومه وتحقيق أهدافه.

4 - انطلق ماكيافيلي في دراسته لتجارب الماضي من مبدأ مصلحة الأمير المتمثلة في المحافظة على سلطته وتعزيز قوته، فحاول وضع قواعد لسياسة الحكام وصياغة ضوابط لسلوكهم، فحاول تحليل نفسية الشعوب وحالتها الاجتماعية ووضعها الاقتصادي وميولها النفسية، دون أن يهمل الظروف التي عرفها عصره والأحوال التي تأثر بها مجتمعه، وإن كان في كل ذلك حريصا على تحقيق الهدف المتوخى من كل ذلك وهو تأكيد سلطة الأمير، هذا ما جعله يرى أن منطق مصلحة الدولة كفيلا بتبرير استعمال كل الوسائل وإن كانت منافية للأخلاق والسلوكات والقيم المتعارف عليها.



لقد رأى ماكيافيلي أن المحافظة على السلطة التي تجسد وتكرس مصلحة الدولة في جو يسود فيه على مستوى الأفراد الخداع والغدر وطلب المجد والحصول على المنفعة، ويتصف في إطار العلاقات الدولية بالمنافسة والحروب والصراع (43)، مما يجعل النجاح في الحفاظ على السلطة وهو أساس منطق الدولة في نظره مرهونا بسلوكات ومواقف تتجاوز الاعتبارات الفردية إلى ما قد يسفر عنها من منافع، وفي هذه الحالة يصبح اللجوء إلى الخداع لا يتنافى مع المجد مطلقا بل هو جدير بالثناء والتمجيد في إدارة الحروب وسيرها، والاخلال بالوعد لا يتعارض مع الأخلاق عندما تزول القوة، وهذا ما جعله يسلم بأنه من الخير أن يتظاهر الأمير بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والاخلاص والتدين وأن يكون فعلا متصفا بها، ولكن عليه أن يعد نفسه عندما تقتضي الضرورة ليكون متصفا بعكسها، فمن واجب الأمير أن يجعل عقله مستعدا للتكيف مع اتجاه الرياح.

يمثل هذه المفاهيم كان لماكيافيلي اسهام في فن ممارسة السلطة وتحديد مفهوم «منطق الدولة» (Raison d'Etat)، هذا المفهوم الذي كان غائبا آنذاك من أحاسيس الشعوب الأوروبية والذي سوف يصبح فيما بعد الشغل الشاغل لرجال الدولة والقائمين على أجهزة الحكم والمتصرفين في بلاطات الأمراء والملوك حتى مستهل القرن التاسع عشر.

لقد رأى ماكيافيلي في الدولة من خلال سلطة الأمير كائننا اعتباريا أو شخصية معنوية تؤثر في المجتمع وتقوم على أساس القدرة على ممارسة السلطة والتي تتطلب امتلاك القوة والاتصاف بالدهاء والحنكة والمرونة لأن هذه الصفات كفيلة باستمرار قوة الدولة والقادرة على زيادة ثروتها وقدرتها.

ومن هذا المنطلق الذي يعطي لمصلحة الدولة الأسبقية على كل الاعتبارات الأخلاقية، يمكن تحديد نظرة ماكيافيلي السياسية التي هي في الأساس تفسير للتاريخ وفهم لسيره وتحليل لنتائجها، والتي جعلت ممارسة السياسة انطلاقا من مفهوم الدولة بمثابة لوحة شطرنج تنتقل عليها قطع «القوة والسلطة» في سعيها الدائم لبلوغ هدفها الأسمى الذي



لا تحديد عنه وهو كيفية إيجاد دولة أو الاستيلاء عليها أو حمايتها أو تقويتها بواسطة سلوكات ومعاملات وإجراءات نابعة من الطبيعة البشرية الخاضعة لظواهر طبيعية متتابعة ومنظمة(44). وبهذا الفهم كان لماكيافيلي دور مهم في بلورة «نظرية السلطة» وإرساء مفهومها الذي أصبح المحك الحقيقي لتصرفات كل أمير والمعيار النهائي لمنجزات كل حاكم في ممارسته للسلطة وتعامله مع الآخرين.

5 - رأى ماكيافيلي في المبادئ الأخلاقية والسلوكات الدينية وسيلة لحفظ مصلحة الأمير وضمان قوة الدولة، وهذا ما جعله يسلم بفائدة المعتقد وبضرورة الأخلاق، فقد رأى فيهما شيئين ضروريين لحياة المجتمع، فالدين يعتبر خيراً وسيلة لخضوع الناس لأنهم فطروا عليه، كما أن تطبيق القوانين واحترام أحكام القضاء يعتبر أساس حفظ الأخلاق العامة، ولهذا فإنه إذا ما تخلى شعب عن الأخلاق الفاضلة فإنه يفقد آنذاك مبرر وجوده، وهذا ما جعل ماكيافيلي لا يرى تناقضاً بين المبادئ الأخلاقية وضمير الأمير وبين مصالح الأمير والصالح العام لأن الهدف الحقيقي للحاكم الكفء هو تحقيق المصلحة العامة أو توفير متطلبات الدولة.

فالمبادئ الأخلاقية في مفهوم ماكيافيلي تجعل العامة تطيع الأمير مما يتوجب تشجيعها ورعايتها، لكنها تصبح مضرّة إذا أخذ بها الحاكم وحاول التقيد بها، مما يتوجب عليه أن يتحرر في سلوكه وأن لا يراعي سوى ما يوفر له الصحة والقوة والنفوذ، وفي هذه الحالة يصبح التظاهر بالفضيلة أهم وأفيد للحاكم من أن يكون فاضلاً بالفعل، فالتظاهر بالفضائل أمر نافع ولا يتوجب معه الاتصاف بها، فقد خاطب ماكيافيلي الأمير بقوله «أنه في مقدور أي إنسان أن يرى مظهره، ولكن قل من الناس من يعرف حقيقة مخبرك وحتى أولئك الناس القلائل الذين يعرفون مخبرك لا يجرون على مخالفة رأي الكثرة فيك، فجميع الناس يرون ما تعمل وكيف تبدو لهم، أما القلة فيحسون حقيقتك وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع»(45).

إن هذه النظرة جعلت ماكيافيلي محل نقمة من بعض العلماء ورجال الدين أمثال الكاردينال الإنكليزي بولوس (Polus) والعالم الكاليفيني غانتييه (Gantillet) وخاصة المفكر



الفرنسي مونتين (Montaigne) الذي أنكر على ماكيافيلي فكرته هذه القائمة على استحالة النجاح بفعل الالتزام بالأخلاق والاخلاص في التعامل والاستقامة في ممارسة السياسة(46).

6 - عالج ماكيافيلي مسألة الحظ في أحداث التاريخ وقضية المصادفة في الشؤون السياسية، فلم يجد بدا من التسليم بعجز الإنسان أمام أحكام القضاء والقدر، إلا أنه رأى أن مصير الإنسان تقرر إرادته ويتحكم فيه عمله ما دام أن الناس في جميع العصور لا يختلفون في طباعهم ومواقفهم، وهذا ما عبر عنه بقوله: «إن القدر وإن كان يتحكم في نصف أعمالنا فإن إرادة البشر تتحكم في النصف الآخر. فالقضاء كالنهر الجارف إن عجزنا عن التحكم فيه في حالة هياجه، فإنه في حالة الهدوء يمكن السيطرة عليه بإقامة الحواجز والسدود»(47).

لقد كان موقفه هذا صادرا عن دراسته للتاريخ التي أقنعت أن للإنسان القدرة على توجيه جزء من حياته، لأن الناس في جميع العصور لا يختلفون جوهرًا في طبيعتهم وأنه من المفيد دراسة تجاربهم لاستخلاص القوانين الثابتة التي يخضعون لها، حتى يمكن التعرف على واقع الأشياء وطبيعتها لتوقع ما قد يواجهه الإنسان وليس التنبؤ بما يحدث له، وهذا ما جعله يأخذ بالمقولة الماثورة التي طالما ردها المؤرخون قبله، وهي: «أن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل، فعليه أن يرجع إلى الماضي». وهذا ما يتوجب معه معرفة السلوك البشري وأخذ الظروف المؤثرة فيه بعين الاعتبار، لأن الحظ حسب قوله: «يتبدل أما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم وهم ينجحون طالما أن أساليبهم تتوافق مع الظروف، أما عندما تتعارض فإن الفشل سيكون من نصيبهم»(48).

ومن هذا المنطلق نصح ماكيافيلي الحكام بأن يأخذوا زمام الأمور مباشرة بأنفسهم، فلا يستسلموا للحظ ولا يركنوا إلى الأخذ بنصيحة الآخرين، فالأمير الناجح عليه «أن لا يشجع مطلقا المحاولات لاسداء النصيحة»، بل عليه الأخذ بسلوك الاندفاع والتهور لتجاوز الاعتبارات التي تحول دون تحقيقه لهدفه لأن الحظ في ذلك شأنه شأن المرأة:

«فإن أردت السيطرة عليها فعليك أن تغتصبها بالقوة وهي بدورها تسمح بامتلاكها للرجل الشجاع لا لذلك الذي يسير بتمهل وأناة، والحظ في ذلك شأنه شأن المرأة يميل دائما إلى جانب الشباب لأنهم أقل حذرا وأكثر ضراوة ولأنهم يمتلكونه (أي الحظ) بقوة وجراحة»(49).

من خلال هذه الاستنتاجات يتضح لنا أن ماكيافيلي عبر عن الحقائق السياسية وطرق الحكم في شكل شواهد وتعليقات اعتبرها أحسن متاع يمتلكه وأعلى شيء يعتز به، لأنه عصارة فكره وخلاصة تجربة حياته، وهذا ما عبر عنه صراحة بقوله: «ولم أعثر فيما أملكه على شيء أعتز به أو أقدره تقديرا فائقا كمعرفتي بجلال الأعمال التي قام بها الرجال العظماء، وهي المعرفة التي حصلت عليها بعد تجربة وخبرة ودراسة»(50).

إن الشيء الجديد في قراءة الواقع التاريخي عند ماكيافيلي هو تحليله الدقيق للأسباب والعلل ومظاهر السلوك انطلاقا من قيم وفلسفة الإغريق والرومان ومفهوم المسيحية للفرد باعتباره مخلوقا تسيطر عليه الرغبة الجامحة والغريزة، ومن حاجات عصر النهضة التي تستجيب للدوافع الانسانية، بحيث يصبح التاريخ رسدا للدوافع المعبرة عن الطبيعة البشرية(51).

إن الشواهد التي استخلصها ماكيافيلي والتعليقات التي استنتجها من كتابات بوليب الإغريقي وتاسيت الروماني وتحليله للكتب العشرة الأولى من تاريخ تيتليف تشكل في مجملها الإطار الفكري والتوجهات السياسية لماكيافيلي، فقد ربط من خلالها مآثر الماضي بأحداث الحاضر وتوقعات المستقبل، وبلور انطلاقا منها تقييمه لسلوك الحاكم ووضعية الدولة ومفهومه عن نوعية السلطة وأخلاقيات الحكم، وهذا ما يجعل ماكيافيلي مؤسسا لعلم السياسة الحديث القائم على فكرة ملاحظة الظاهرة السياسية المتمثلة في الدولة في حالة صعودها وانحدارها والمهتم بوضع الحاكم الذي يمارس السلطة فيها والتي يرتبط استمرار كيانها وانحلالها وتلاشيها بتصرفاته ومواقفه.



كما تتأكد مكانة ماكيافيلي كمؤرخ محلل لقضايا التاريخ ومعلق على أحداثه من خلال تحليله للتاريخ القديم واعتباره مخبرا لتجاربه، وجعله قضايا المجتمع ومتطلبات عصره -الذي هو عصر النهضة- مرجعا لتفكيره، فحقق بذلك مساهمة نوعية نقلت التاريخ من الماضي البعيد عن اهتمامات المجتمع إلى الواقع الملصق بحياة الناس، وهذا ما أكسب تجربة وحنكة ماكيافيلي السياسية قيمة انسانية خالدة وجعل منه شخصية فذة في عصر كثر فيه المشاهير وعلماء بارزا في عالم الفكر والتاريخ في مجتمع نبغ فيه كثير من ذوي الثقافة والمعرفة، فحق له أن ينال اعجاب المفكرين الأوروبيين وأن يحظى بمكانة مرموقة في تطور الفكر التاريخي، فحلل فيخته (Fichte) كتبه للشعب الألماني، وشهد له الفيلسوف هيغل (Hegel) بالعبقريّة، واعتبره رائد المؤرخين المحدثين رانكه (Ranke) أحد مؤسسي التحليل التاريخي الحديث، وأشاد بفضله على الفكر المؤرخ والفكر ترايتشكه (Treitschke)، واعتبره دعاة الوحدة الإيطالية وفي مقدمتهم كافور (Cavour) رسولا للأمة الإيطالية(52).

وفي ختام هذا العرض يتضح لنا أن كلا من فالّا وغيشارديني وماكيافيلي كانوا بحق رواد المدرسة التاريخية الأوروبية في القرن السادس عشر، فقد عبروا عن الاتجاهات الحديثة في تأريخ زمن النهضة وتجاوبوا مع متطلبات عصرهم وعبروا عن حاجات مجتمعهم، وفتحوا آفاقا واسعة في الفكر التاريخي الأوروبي سمحت للأوروبيين بتجاوز مفاهيم الكنيسة ونظم الاقطاع إلى معالجة قضايا الفرد وشؤون المجتمع وانجازات الحكام، انطلقا من روح واقعية ونظرة نقدية وعرض أدبي شيق ومعالجة تحليلية ونظرة إلى الماضي من خلال متطلبات الواقع ومقتضيات المستقبل، كل ذلك في إطار ثقافة تاريخية واعية ومفهوم انساني متفهم لمكانة الفرد وحاجة المجتمع ومتطلبات الدولة. وبذلك «كان نقد فالّا الجريء وكتاباته اللادعة، كما كانت الميول الوثنية المتحسنة من الكنيسة



والمتحمسة للعبة السياسة والمعبرة عن الروح الوطنية لكل غيشيارديني وماكيافيلي تعبيراً عن منتهى ما وصل إليه التاريخ في زمن النهضة» (53).

الهوامش:

- (1) - عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، صيدا-بيروت، المكتبة العصرية، 1968، ص ص. 71-70 و 162.
- (2) - هيربرت أ.ل. فيشر، «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى»، القسم الأول، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد باز العريني، ط. 2، القاهرة، دار المعارف، 1955، ص ص. 193-206.
- عبد القادر أحمد اليوسف، المصدر نفسه، ص ص. 157-161.
- (3) - للتعرف على نقد «هبة قسطنطين» راجع:
- هيربرت أ.ل. فيشر، «أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة إلى الثورة الفرنسية»، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة، دار المعارف، 1962، ص. 36.
- انجري نف، «المؤرخون وروح الشعر»، ص. 36.
- ف.ج.س. هرتشو، «علم التاريخ»، ترجمة عبد الحميد العبادي (سلسلة المعارف العامة)، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1944، ص ص. 48-49.
- (4) - هيربرت أ.ل. فيشر، «أصول التاريخ الأوروبي...». المصدر نفسه، ص. 36 وكذلك:
- A. Châtel & R. Klein, L'âge de l'humanisme, Paris, 1963.
- (5) - Lorenzo Valla, in Nouvelle biographie générale, Paris, 1859, t. 45, pp. 878-888.
- F. Dechèque, Lorenzo Valla, in Encyclopédie des grands du monde.
- (6) - Lorenzo Valla, op. cit., p. 879.
- (7) - Idem, p. 880.
- Guiguène, Histoire littéraire de l'Italie, t. III.
- (8) - ول ديورانت، «قصة الحضارة (النهضة)»، الجزء الرابع من المجلد الخامس، ترجمة محمد بدران، القاهرة، منشورات الدائرة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1971، ص ص. 38-39 نقلاً عن:
Villari, Machiavelli, t. 1, p. 417.
- (9) - للتعرف على حياة غيشيارديني، راجع:
- ول ديورانت، المصدر نفسه، ص ص. 38-43.
- Remigo, Vie de Guichardin, traduite par Gargeon.
- M. de Lescure, Guichardin, in Nouvelle biographie générale, Paris, 1859, t. 22, pp. 524-532.
- (10) - ول ديورانت، المصدر نفسه، ص. 40، نقلاً عن:
Guicciardini, Ricordi XXVIII.
- (11) - M. de Lescure, op. cit., p. 526.
- (12) - Idem, p. 530.



- (13) - ول ديورانت، المصدر نفسه، ص. 42، نقلا عن:
Villari, Machiavelli, t. II, p. 86.
- (14) - المصدر نفسه، ص. 41.
- (15) - المصدر السابق، ص. 42، نقلا عن:
Villari, Machiavelli, t. II, p. 86.
- (16) - المصدر السابق، ص. 41، نقلا عن:
Guicciardini, Ricordi XXIII, in Burckhart, p. 464.
- (17) - المصدر السابق، ص. 41، نقلا عن:
Guicciardini, Ricordi XXIII, in Burckhart, p. 464.
- (18) - M. de Lescure, op. cit., p. 529.
- (19) - للتعرف على حياة مكيافيلي وانتاجه، راجع:
- ول ديورانت، المصدر نفسه، ص. 44-75.
- جوزيبي بريتزولفي، «حياة نيكولو مكيافيلي الفلورنسي»، ترجمة طه فوزي، القاهرة، سلسلة ألف كتاب، 1964.
- محمد مختار الزقزوقي، «نيكولو مكيافيلي، دراسة تحليلية محورها كتاب الأمير»، ترجمة وتعليق محمد الزقزوقي، القاهرة، الأنجلو مصرية، 1958.
- إلين فيدرين، «مكيافيلي»، ترجمة أميرة الزين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974.
- نيقولو مكيافلي، «المطارحات»، تعريب خيرى حماد، ط. 3، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1982.
- نيقولو مكيافلي، «الأمير»، ترجمة خيرى حماد، بيروت، المکتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1970.
- N. Machiavel, Oeuvres complètes, Textes présentés et annotés par Ed. Barincour, Introduction par J. Giono, Paris, Gallimard, 1952.
- Ed. Barincour, Machiavel par lui-même, Coll. Ecrivains de toujours, Paris, Seuil, 1957.
- M. Brion, Génie et destinée de Machiavel, Paris, A. Michel, 1948.
- R. Triki-Boubaker, Esthétique et politique à la Renaissance, Publications de l'Université de Tunis, Vol. 23, 1987.
- (20) - اعتمادا على النسخة العربية من كتاب «المطارحات»، انظر: نيقولو مكيافلي، «المطارحات»، المصدر نفسه، وسوف نشير إليها لاحقا بعبارة «المطارحات».
- (21) - اعتمادا على النسخة العربية من كتاب «الأمير»، انظر: نيقولو مكيافلي، «الأمير»، المصدر نفسه، وسوف نشير إليها لاحقا بعبارة «الأمير».
- (22) - ول ديورانت، المصدر نفسه، ص. 49.
- (23) - كريم متى، «الفلسفة الحديثة (عرض نقدي)»، ط. 2، بنغازي، منشورات جامعة فارينونس، 1988، ص. 17.
- (24) - المصدر السابق.
- (25) - «الأمير»، الباب 26، ص. 197.
- (26) - المصدر السابق.
- (27) - المصدر السابق، ص. 201.



- (28) - «المطارحات»، الكتاب الثالث، ص. 746.
- (29) - موريس كرانستون، «أعلام الفكر السياسي»، بيروت، دار النهار، 1970، ص. 41.
- (30) - رولان موسينييه، «القرن السادس عشر والسابع عشر»، سلسلة تاريخ الحضارات العام، إشراف موريس كروزويه، ترجمة يوسف أسعد وفريد داغر، ط. 2، بيروت، 1987، الجزء 4، ص. 53-56.
- (31) - المصدر السابق، الجزء 4، ص. 56.
- (32) - ول ديورانت، المصدر نفسه، ص. 52، نقلا عن «المطارحات».
- (33) - كريم متي، المصدر نفسه، ص. 16-17.
- (34) - موريس كرانستون، المصدر نفسه، ص. 41.
- (35) - «الأمير»، الباب 5، ص. 76.
- (36) - «الأمير»، الباب 17، ص. 143-144.
- (37) - ألبان ج. ويدجري، «التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي»، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص. 130.
- (38) - «الأمير»، الباب 25، ص. 194-195.
- (39) - «المطارحات»، الكتاب الثاني، ص. 481.
- (40) - «الأمير»، الباب 18، ص. 148.
- (41) - «الأمير»، الباب 15، ص. 136.
- (42) - «الأمير»، الباب 19، ص. 159.
- (43) - رولان موسينييه، المصدر نفسه، الجزء 4، ص. 56.
- (44) - للتعرف على مفهوم «منطق الدولة» (Raison d'Etat) في فكر ماكيافيلي، راجع:
- ألبان ج. ويدجري، المصدر نفسه، ص. 130.
- كريم متي، المصدر نفسه، ص. 16-17.
- ف. سكيفل، «المجتمع الإيطالي في عصر النهضة»، ضمن كتاب «حضارة-عصر النهضة»، ترجمة عبد الرحمن زكي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1961، ص. 89-90.
- R. Triki-Boubaker, op. cit., p. 73.
- M. Prélôt, Histoire des idées politiques, Paris, Coll. Dalloz, 1970, 4è éd., pp. 203-208.
- (45) - «الأمير»، الباب 18، ص. 150.
- (46) - فاروق سعيد، «عرض عن الفكر السياسي قبل وبعد الأمير»، ضمن كتاب «الأمير»، المصدر نفسه، ص. 249-250.
- (47) - «الأمير»، الباب 25، ص. 190-191.
- (48) - «الأمير»، الباب 25، ص. 194.
- (49) - «الأمير»، الباب 25، ص. 194-195.
- (50) - «الأمير»، التقديم إلى لورانزو العظيم، ص. 51.
- (51) - ر.ج. كولنجوود، «فكرة التاريخ»، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1961، ص. 120.
- (52) - فاروق سعيد، المصدر نفسه، ص. 251.
- (53) - ف.ج.س. هرتشو، المصدر نفسه، ص. 49-51.